ظلال المجد

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

٩٥٦

عبد عبد العزيز الخياط

ظلال المجد/ عبد العزيز الخياط. - عمان:
دار البشير، ١٩٩٣.
(١٢٧) ص.
.أ (١٩٩٣/٤/٤٢٩).

١ - تاريخ العرب والإسلام ٢ - الإسلام - دفاع
أ - العنوان.

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

دار البشير
ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان - الأردن

Dar Al-bashir
For Publishing & Distribution
Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box. (182077) / (183982)
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan

من التاريخ الإسلامي

ظلال المجد

الدكتور عبد العزيز الخياط

دار البشير
للنشر والتوزيع

إهداء

أعتز بأن أقدم هذه الطبعة المجددة لأول كتاب لي صدر قبل خمسة وأربعين عاماً إلى جلالة الملك الحسين بن طلال المعظم، تيمنا بشفاء جلالته، وتجديد شبابه، باسترداد عافيته وصحته، وتعبيراً عن امتناني له لما كرمني باستفساره الدائم عن صحتي، وزيارته لي بمدينة الحسين الطبية حينما كنت أعالج فيها، وتوكيداً للمحبة والثقة والولاء.

د. عبدالعزيز الخياط

مُقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد:

فقد شاء الله سبحانه وتعالى، أن يكون هذا الكتاب «ظلال المجد» أول كتاب لي أصدره فور تخرجي من كلية الآداب بجامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول سابقاً) سنة ١٩٤٧ م.

وكانت معظم مادته قد نشرت بمجلة الإخوان المسلمين التي كانت تصدر في القاهرة، وذلك قبل خمس وأربعين سنة تقريباً. وقد نفدت طبعته الأولى بعد ثلاثة أشهر منذ صدوره، ولم يكن عندي أي نسخة منه، وقد ضاعت أصوله، ثم عثرت على نسخة منه في مكتبة «الكلية العلمية الإسلامية» فاستعرتها منها، ثم دفعتها إلى دار البشير لصاحبها السيد رضوان دعبول، لإعادة طباعة الكتاب مشكورة، ولا سيما وإني وجدت مقدمة المرحوم الشيخ حسن البنا بخط يده، فأحببت أن تنشر بخطه، اعتزازاً وذكرى.

ومنذ صدوره إلى اليوم فقد تغيرت أمور كثيرة، وضاعت فلسطين وما بقي منها إلا شعب مقهور ومسجد أقصى مأسور، وقد تقلبت بي الدنيا، وما زالت تعصف بفلسطين الأعاصير.

وقد أصدرت بعد هذا الكتاب أكثر من خمسة وعشرين كتاباً، وما زالت أعداد كبيرة مخطوطة تنتظر الإصدار..

وها أنا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) عضواً عاملاً ونائباً للرئيس، سائلاً المولى سبحانه التوفيق والمعونة والسداد وحسن الختام.

والله ولي التوفيق.

أ. د. عبد العزيز الخياط

عمان في:

١١ ذو القعدة ١٤١٣ هـ.

٣/٥/١٩٩٣ م.

مُقدمة بقلم فضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ارتفعت راية الأمجاد الإسلامية بأيدي أسلافنا المجاهدين الأكرمين فأظلت الخافقين، وامتد رواقها ما بين المشرق والمغرب، ثم انحسر هذا الظل بتقصيرنا، حتى طمع فينا من لا يدفع عن نفسه.. ولكن بقيت في أيدينا كل العوامل التي نهضت بهؤلاء الأسلاف ومكنت لهم في الأرض: من التعاليم الإنسانية العليا التي جاءنا بها أنبياؤنا ورسلنا صلوات الله وسلامه عليهم وختمت بالقرآن الكريم الذي أنزله الله على نبيه «تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»، ومن القلوب النقية التي تؤمن بهذه التعاليم أعمق الإيمان، وتشعر بكل ما فيها من سمو وجلال، ومن العزائم الماضية التي تدفع إلى الكفاح والجهاد، وتجعل الموت في سبيل الحق أسمى أمانيها..

وإنما ينقصنا من يحرك هذا الإيمان، ويقود تلك العزائم،

ولهذا كان كل حُداء يتصل بهذه الذكريات، وكل حادٍ يتغنى بها، عاملا من أقوى العوامل التي تدفع بهذه الأمة الحية السليمة من جديد إلى «ظلال المجد» و «رب ذكرى قربت من نزحا».

وهذا أخونا الفاضل الأستاذ عبد العزيز الخياط يحدونا بكلماته هذه القوية، ونحن على متن الطريق، فلنقرأ ولنسمع ولنسر إلى الأمام.. والله أكبر ولله الحمد.

٣ من يوليو ١٩٤٧ م — الفقير إليه تعالى

١٤ من شعبان ١٣٦٦ هـ — حسن البنا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

ارتفعت راية الدعوة الإسلامية بأيدي أسلافنا المجاهدين الأكرمين فأظلت الآفاق الفسيحة وامتد رواقها ما بين المشرق والمغرب ثم انحسر هذا الظل بتقصيرنا حتى أصبح فينا من لا يدفع عن نفسه ولكن لم تزل في أيدينا كل العوامل التي نهضت بأسلافنا الأولين ومكنت لهم في الأرض من التعاليم الإلهية العليا التي جاءنا بها أنبياؤنا ورسلنا صلوات الله وسلامه عليهم وختمت بالقرآن الكريم الذي أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم "تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين" ومن القلوب النقية التي تؤمن بهذه التعاليم أعمق الإيمان وتستعذب كل ما تلقى من عسر وجهاد ومن العزائم الماضية التي تدفع إلى الكفاح والجهاد وتجعل الموت في سبيل الله أسمى أمانينا وإنما ينقصنا من يحرك هذا الإيمان ويقود تلك العزائم ولهذا كان كل جهاد يتصل بهذه الذكريات وكل جهاد يتغنى بذكر عالم من أقوى العوامل التي تدفع إلى بعث الأمة الحية المسلمة من جديد إلى ظلال المجد. ورب ذكرى قربت من نزحها.

وهذا أخونا الفاضل - الأستاذ عبد العزيز الخياط - يحدثنا بكلماته هذه

العربية ونحن على عتبة الطريق فلنقرأ ولنسمع ولننشر والى الأمام والله أكبر
ولله الحمد

محمد البشير الإبراهيمي

في ١٤ شعبان ١٣٦٦
٢ جويلية ١٩٤٧

تمهيد

كان فتى لَدن العود، فاره القامة، ليِّن العيش، لا يمنعك المظهر الخادع الذي يظهر به من أن تستشف وراءه قوة النفس وسمو الروح، وصفاء الفكر، والتفاني في عروبته وإسلامه..

إذا أبصرته خيل إليك أن هذا الرجل ليس رجلا: أناقة في الملبس بلغت حد التكلف، ونعومة في الجسد تبعده عن صفة الرجال.. ولكنك إذا جلست إليه وتحدثت معه تدفق في الكلام وتحمس لبلاده وأخذ يسرد عليك أمجاد العرب، وعظمة الإسلام، فلا تتركه إلا وقد ترك في نفسك إيمانا قويا بمجدك الغابر، وتاريخك المجيد.

.. ذلك مدرس التاريخ الذي تلقنت على يديه في مرحلة التعليم الثانوي دروس التاريخ..

كان يأبى أن يدرس تاريخ أوروبا ـ حسب مقرر دائرة المعارف ـ والتاريخ الإسلامي لم يعرفه أبناؤه بعد.. فيعطينا مختصرا وجيزا عن تاريخ أوروبا ثم يفيض في التاريخ العربي

الإسلامي ما وسعه الوقت في غفلة المفتشين . .

وجاءنا يوما في آخر العام الدراسي ، وفي يديه كتاب ، ووضعه على المنضدة والتفت إلينا وقال : «لقد استؤنفت ثورة فلسطين . . والثـورة وقودها الرجال ، وأنا أول أولئك الرجال . . سأستقيل من وظيفة التدريس لاشتغل في وظيفة الجهاد ، ولتكن هذه الساعة آخر عهدي بكم في المدرسة ، ولنقضها فيما يعود علينا بالخير ويذكرنا بأمجاد التاريخ» .

وأخذ يتحدث عن عظمة المسلمين موجها تلامذته إلى ذلك التـاريخ الـذي أنسانا إياه مستعمر غربي واغل ، داعيا أبناءه إلى حرب تحق الحق وتزهق الباطل ، سارداً علينا قصة ضياع المجد الـذي حازه أسـلافنـا ، وكيف أوشكت أن تضيع بعده بلادنا إلى الصهيونيين كمـا ضاعت الأندلس . . ثم تناول جزءاً من الكتاب الذي أحضره وقال : «هذا كتاب نفح الطيب للمقري . . سأقرأ لكم منه فصولا عن عظمة العرب ، وفصولا تصف حالتهم التي وصلوا إليهـا من الضعف والـذلة والمسكنة ، وكيف أغار عليهم الأفرنج فأخرجوهم عن ديارهم ، وأجلوهم عنها» . ثم أخذ يتلو علينا بعض ما قيل من الشعر والنثر في رثاء الأندلس أتذكر منه أبياتاً لابن الأبار القضاعي أنشدها السلطان أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي صاحب تونس :

أدرك بخيلك خيل الله أنـدلسـا
إن السبيل إلى منجـاتهـا درسـا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منـك عز النصـر ملتمسـا
وحـاش ممـا تعـانيه حشـاشتهـا
فطالمـا ذاقت البلوى صبـاح مسا
يا للجـزيرة أضحى أهلهـا جزراً
للحـادثـات وأمسى جدهـا تعسـا
في كل شارقـة الـمـام بائقـة
يعـود مأتمهـا عنـد العـدى عرسـا
وكـل غاربـة أجـحـاف نائبـة
تثنى الأمـان حذاراً والسرور أسى
تقـاسم الـروم لا نالت مقـاسمهم
إلا عقـائلهـا المحجـوبـة الأنسـا
وفـي بلنسـيةٍ منـهـا وقـرطبـة
ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلهـا الإشـراك مبتسمـا
جذلان وارتحـل الإيمـان مبتئسـا
يا للمسـاجـد عادت للعـدى بيعـاً
ولـلنـداء غدا أثنـاءهـا جرسـا

سرعـان ما عاث جيش الكفر واحربا
عيث الـدِّبا في مغانيها التي كبسا
وابــتــز بزتــهــا ممــا تحـيفـهــا
تحيف الأسـد الضاري لما افترسا

وأتــذكــر كذلـك عبـارة الكـاتب أبي المـطرِّف بن عميرة: «طارحني حديث مورد جف، وقطين خف، فيا لله لأتراب درجوا، وأصحاب عن الأوطان خرجوا، قصت الأجنحة وقيل: طيروا وإنما هو القتل أو الأسر أو تسيروا. فتفرقوا أيدي سبأ وانتشروا ملء الوهاد والـربا، ففي كل جانب عويل وزفرة، وبكل صدر غليل وحسرة، ولكل عين عبرة لا ترقأ من أجلها عَبرة. . يا طول هذه الحسرة! ألا جابر لهذه الكسرة؟ أكل أوقاتنا ساعة العُسرة؟

أخي: أين أيامنا الخوالي، ولياليا على التوالي!؟ ولأية عيش نعم بها الوالي؟ ومسندات أنس بعدها الرواة من الغوالي. . بعداً لك يا يوم الثـلاثـاء من صفـر، ما ذنبـك عندي بشيء يغتفر، قد أشْمَتَّ بالإسلام حزب من كفر. . من أين لنا المفر!؟ كلا لا مفر».

ولا يزال وقع أبيات من قصيدة أبي البقاء الرندي يرن في أذني:

دهــا الــجــزيرة أمــر لا عزاء له
هوى له أحــد وانــهــد ثهــلان

أصابها العين في الإسلام فارتزأت
حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية؟
وأين شاطبة؟ أم أين جيانُ؟
وأين قرطبة دار العلوم بها؟
فكم من عالم قد سما فيها له شأن
وأين حمص وما تحويه من نزه
ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كنَّ أركان البلاد فما
عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف
كما بكى لفراق الألف هيمان
على ديار من الإسلام خالية
قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
حتى المنابر ترثي وهي عيدان

وتلا علينا نبأ المسلمين حين طردوا من الأندلس، وحذرنا إذا لم نقم نحن شباب الغد بإنقاذ فلسطين فسيكون مصيرنا إلى ذلك،

وقرأ لنا قطعة من قصيدة الوليد بن طعمة من أدباء لبنان المسيحيين في رثاء الأندلس وذكر مجد العرب مطلعها:

يا أرض أنـدلس الخضـراء حيينـا
لعــل روحـا من الحمـراء تحيينـا
عادت إلى أهلهــا تشتـاق فتيتهـا
فأسمعت من غنـاء الحب تلحينـا
كانت لنا فعنت تحت السيوف لهم
لكن حاضــرهــا رسم لمــاضينـا
في عزنــا اكتسبت منـا فصـورتنـا
محفــوظــة أبــداً فيهــا تعـزينـا

ثم قال: «هذا مجد آبائكم ولى، ولم تبق منه إلا الظلال.. فأعيدوا المجد يا شباب حتى لا يكون لكم ظلال بلا مجد..».

وما انتهى المدرس مما خاض فيه حتى رأيت أقسى الطلاب قلوبا قد رقت قلوبهم وسالت الدموع من مآقيهم حزنا ورثاء، وأملا ورجاء.

وكان هذا آخر عهدنا بمدرس التاريخ إذ التحق بالثورة ثم مات في أعقابها بعد أن جاهد وأبلى بلاء حسنا وطورد وعذب وشرد.

ومـضت الأيام.. وجئت مصــر، فدرست في الأزهــر حتى انتهيت من تخصص القضـاء الشرعي بكلية الشريعة.. وأنا أجد

في كل كتاب أطالعه صورة من صور العظمة الغابرة، وظلاً من ظلال المجد الماضي . . في الفقه الإسلامي والحديث والتفسير وأصول الفقه والفلسفة الإسلامية . . كلها تنطق بخلود ذلك الفكر الإسلامي النير .

ودخلت كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ثم أنهيت الدراسة فيها ووقفت على ألوان من ألوان المجد الإسلامي في آدابهم وعلومهم وتاريخهم .

إنه مجد عظيم لم يبق منه إلا الظلال .

ولكن شباب العرب والإسلام قلما يتفيؤون هذه الظلال . . بل إن كثيرا منهم لم يحاول أن يبحث عنها . . وكيف يعاد مجد لا نعرف منه شيئاً حتى ظلاله الباقيات!؟

ورحت أكشف عن بعض هذه الظلال . . وأسوق الحديث عنها في أسلوب قصصي يغري بالقراءة، ويقرب الأذهان . . وأصل بين ظلالنا الماضيات وظلالنا الباقيات . .

وها هي بعض الظلال . . ستتلوها لواحق إن شاء الله، والله المستعان .

في ١٥ شعبان ١٣٦٦ هـ عبد العزيز عزت الخياط
٤ يوليو ١٩٤٧ م نابلس ـ فلسطين

مِنْ وَحْيِ الهِجْرَة

في هدأة الليل، نام أليفان من اليمام في عشهما الساكن في سقف ندوة قريش، آمِنَيْن من شرور الإنسان، سعيدَين في غفلة الدهر. غير أنهما لم يسكنا إلا قليلا حتى أزعجتهما ضجة مقبلة. فنظرا. فإذا رجال من قريش يفدون إلى الدار في لهفة وسرعة.

وإذا الندوة قد ضاقت بالشيوخ والشباب. وسكنت الضجة، وخيم السكون، وأطرق القوم فإذا القائل يتحدث: «يا معشر قريش إن محمداً قد سفه أحلامكم، وعاب أصنامكم، وأغرى شبابكم فانضموا إلى دينه الجديد، يوشك أن يصرف الناس عن بلدكم ببدعته المنكرة. وإنا لنجتمع الليلة لنرى فيه الرأي فادلوا دلاءكم في هذا الأمر وانظروا ماذا أنتم فاعلون..».

وانطلق كل يبدي رأيه، ويقول كلمته، حتى تحدث شيخ مجرب فقال: «يا معشر قريش ليس لكم والله إلا أن يجتمع الشباب من كل قبيل، فيقتلوا هذا الرجل، فيضيع دمه هدراً بين القبائل، بداً بين عشائر العرب، فلا يقدر أهله على المطالبة له بدم..».

وصاحت الأصوات: «نعم الرأي»، واختار القوم نفراً من شباب

القبائل ليقتلوا محمداً وخرجوا لينفذوا الخطة المبيتة على الفور.

وهلعت اليمامتان.. وقال الأليف لزوجه: «أتدرين أنهم يريدون أن يقتلوا ذلك الرجل الذي أرسله الله لهداية الناس، تحف به الملائكة، وينطق بالحكمة ويرسل القول عذبا ساحرا، ويتلو القرآن في صوت رخيم يحمل في ثناياه دعوة الحق إلى الرحمن».

فقالت: «أتعني محمداً».

فقال: «بلى».

قالت: «يا ويلتاه هيا بنا نخبره بما أضمر القوم ليتفادى الخطر».

قال: «انتظري الصبح. أليس الصبح بقريب؟ إننا لا نستطيع الطيران في الظلام».

وباتت اليمامتان، لم يغمض لهما جفن، ولم يهدأ لهما روع، قلقا على حياة الرسول، ودنا الصبح، وظهرت خيوط النور في ثنايا الأفق، وطارت اليمامتان إلى بيت محمد بن عبدالله.

وقال الأليف لإلفه: «انظري: ما بال شباب قريش نائمين على باب محمد أتراهم يترقبون خروجه نياما!؟ وَيْ ما بال التراب على وجوههم وأعينهم!؟ إن في الأمر لسراً».

قالت: «يخيل إليّ أن رب محمد قد أنقذه انتظر لنرى ما تم في أمرهم وأمره».

وجلسا يرقبان على غصن شجرة، وقد انتشر دمع السحر على ريشهما.

وجاء رجال قريش بعد قليل.. فأيقظوا النائمين قائلين: «ويحكم.. ماذا دهاكم!؟ هل قتلتم محمدا؟».

فقال الشباب في ذهول: «انتظرناه حتى خرج فإذا به يأخذ حفنة من التراب فيلقيها علينا ويقول: «شاهت الوجوه» وداهمنا السبات فلم نعِ ما قال بعد ذلك وما حدث».

وأقبل بعضهم على بعض يتشاورون.. وصاح صائحهم: «إن قريشاً تبذل مائة ناقة حمراء لكل من يقتل محمدا.. إن محمدا قد ترك مكة إلى المدينة».

وهلعت اليمامتان مرة أخرى، وقالتا: «هيا بنا وراء محمد فلعلنا نكون سببا في نجاته من الأذى»، وطارتا تسبحان في الأفق الممتد إلى المدينة تعلوان آناً في السماء حتى لا يبين لهما شبح، وتهبطان أحياناً حتى تلامسا الأرض.. وهما تبحثان عن رجلين تسللا من مكة إلى المدينة، هرباً من الظلم، وفراراً بدينهما الجديد. ورأتا بعد زمن شبحين يجدان في السير.. فقال الزوج: «ها هو محمد وصاحبه» واقتربا.. فإذا أبو بكر يسير تارة خلف النبي وأخرى أمامه، وثالثة عن جانبيه.. إنه يخشى أن يصيب محمداً أذى.. فلتطيرا فوق النبي إذن، حتى تمنعا عنه الأذى.

ولكن طلائـع الليل أقبلت بعـد زمن . . فآوت اليمامتان إلى عش في نبـات السَّلم، حتى بزغ فجـر اليوم التالي فطارتا لتلحقا بالرسول ﷺ ولكنهما لم تجداه في الطريق.

لقـد آوى إلى الغـار الـوحيد في هذه الطريق . . غار ثور . . وأقبلتا على الغار . . ونظرتا من فجواته الضيقة . . فإذا محمد ﷺ نائم في حجر أبي بكر الصديق، وإذا الدمع يتساقط من عيني أبي بكر، فتسقط دمعة على خد النبي الكريم فيفتح عينيه ويقول:

«أتبكي يا أبا بكر؟» فيقول أبو بكر:

«أجل يا رسول الله . إني خائف».

فيجيبه الرسول: «لا تحزن إن الله معنا».

وأخذت الرقة بقلب اليمامتين وتحولتا إلى باب الغار ترقبان، فراعهما أن تريا جمعاً من الناس قد أقبل من بعيد.

رباه . ماذا تصنعان . . لقد لحقتا النبي ﷺ لتساعداه وقد آن الأوان.

وقالت إحداهما: «هذه شجيرة . . هيا ندنيها من باب الغار».

وجاءتا إلى الشجيرة قائلتين: «أيتها الشجيرة ميلي على باب الغار حتى تسدِّيه . . إن فيه نبيا كريما يختفي عن أعين الظالمين».

وهبت ريح فأمالت الشجرة حتى حجبت النور عن الغار.

وجلست أنثى اليمام على فرع الشجيرة المائل ووضعت بيضتين.

وذهب ذكر اليمام يبحث عن عنكبوت فيجده أسفل صخرة فيصيح به: «أيها العنكبوت الكريم.. أسرع إلى باب الغار لتنسج عليه خيوطك الذهبية».

فقال العنكبوت: «دعني وشأني إن الخيوط على باب الغار تزيلها يد الإنسان.. دعني هنا آمناً أدعو الله في تسابيحي».

ـ ويحك ألا تحب أن يشارك الإنسان الحيوان في تسبيح الرحمن.. إن في الغار نبياً كريماً يختفي عن أعين الظالمين.. أسرع لإنقاذه ليتمكن من هداية العالمين».

ـ «أجد ما تقول؟ هل تدفع خيوطي الواهنة الأذى عنه؟».

ـ «أسرع فالأمر لا يحتاج إلى جدال».

ونسج العنكبوت خيوطه على باب الغار..

وجاء جمع قريش يهرعون.. وقالوا إن محمداً وصاحبه بالغار، وحبست اليمامتان أنفاسهما من القلق، وانتظر العنكبوت ليرى كيف تدفع خيوطه الواهنة قوة الإنسان.

وقال القائل: «كيف يدخل محمدٌ وصاحبه الغار.. والعنكبوت قد نسج عليه خيوطه.. وهي هي لا تزال سليمة.. والشجرة قد تدلت على باب الغار فحجبته، والطير قد اتخذ عشه

الهادىء عليها. . كل ذلك سليم لا يدل على أن إنسانا قد دهم الغار. . ».

فأمنّ الجميع على ما قال وانصرفوا.

وأقبل العنكبوت على اليمامتين وهو يقول: «كيف أجزيكما. . لقد ساهمت في إنقاذ الرسول».

فقالتا: «شكراً لله. . غدا سترى النور كيف تمتد أشعته إلى العالمين. . ».

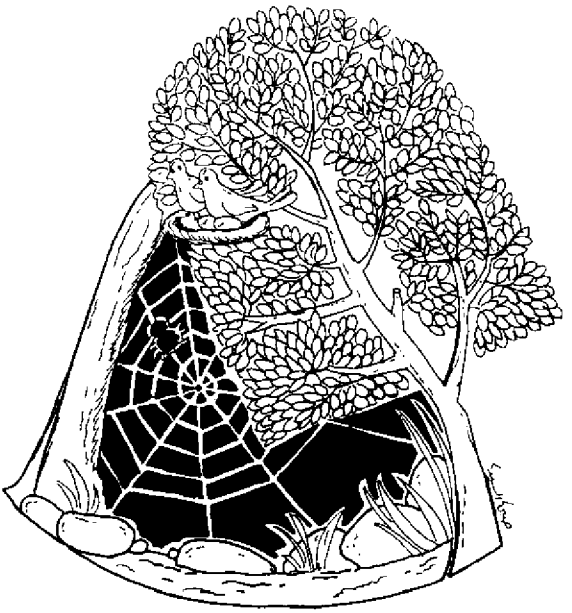

كيف كفّر عن ذنبه؟

يذهب بعض المؤرخين إلى لوم دولة الموحدين التي قامت بالمغرب في أواخر القرن السادس الهجري لعدم تقديمها المساعدة للسلطان صلاح الدين الأيوبي في رد غارات الصليبيين، والواقع أن الموحدين ـ شأن كل دول المغرب والأندلس ـ قد شغلوا بهذه الحروب الطويلة مع الإفرنج في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا. ونستطيع أن نعد الحروب التي كانت بين الموحدين وبين الإسبان والفرنسيين ذات أثر فعال في إضعاف حملات الصليبيين لا سيما وهم الذين استردوا إسبانيا من الإفرنج للمرة الثالثة وردوهم على أعقابهم إلى جبال البرانس.

ومن المؤسف أن ذلك لم يدم طويلاً إذ اضطرت دولة الموحدين إلى الانزواء في المغرب وترك الأمر بين ملوك الطوائف الذين استعدَوا الإفرنج على بعضهم فذهبت ريحهم وذهبت مع هذه الريح إسبانيا المسلمة.

وهذه الغزوة صفحة رائعة من مساعدة دولة الموحدين للسلطان صلاح الدين من طريق غير مباشر. هو شن الغارات على الإسبان وشغلهم عن إرسال الإمدادات إلى المشرق، وإخافة

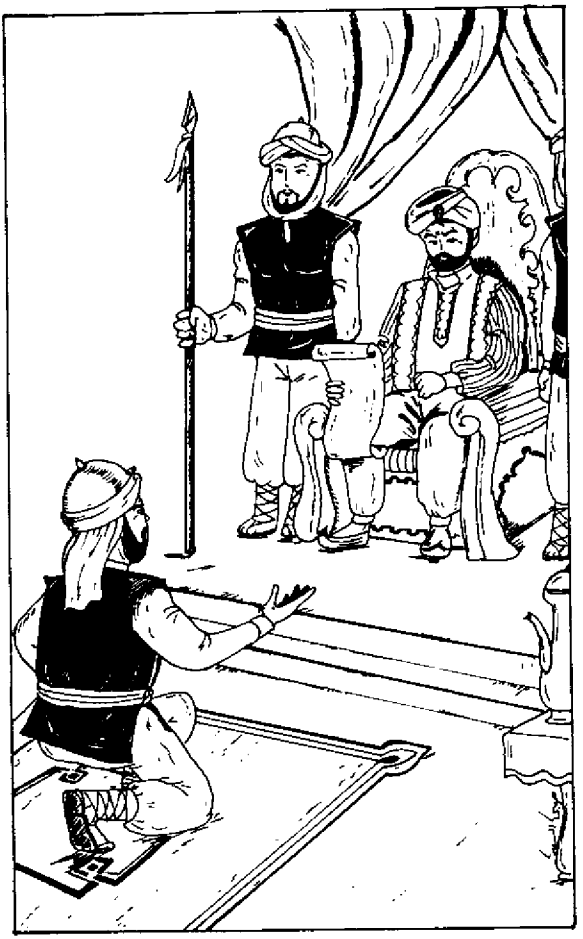

فرنسا من امتداد الخطر إليها والاحتفاظ بعدد كبير من جنودها استعداداً لدرء هذا الخطر.

- ١ -

استحث أبو الحارث شمس الدين بن منقذ مطيته في السير، وأطلق لها العنان، وراح يضرب في هذه الآفاق الشاسعة بين فلسطين والأندلس، يود لو أن الأرض طويت له حتى يغمض العين في الشام فلا يفتحها إلا وهو في الأندلس..

لقد كان يحمل كتابا من السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى رئيس دولة الموحدين «يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن» يستنجده فيه ويستصرخه.. لقد دهم الخطر، واستعد الصليبيون للقضاء على المسلمين في الشام، فهم يعدون العدة للضربة الأخيرة من حشد الأساطيل، وموالاة الإمدادات لقواتهم التي أزالها صلاح الدين من مدن الساحل.. والسلطان صلاح الدين وحده في الميدان لا ناصر له إلا الله، ولا مدد يأتيه إلا من عنده، والخلافة في بغداد قد شغلتها اللذائذ عن جهاد الأعداء، وألهتها الخصومات بين رجال دولتها عن إدراك الخطر الداهم.. وليس في المسلمين دولة ذات أسطول بحري يستنجد به صلاح الدين إلا دولة الموحدين.

ودخل أبو الحارث بن منقذ على أمير المؤمنين يعقوب الملقب

بالمنصور وأسلمه رسالة صلاح الدين. . ثم وقف بين يدي الأمير يستمع إلى كاتبه وهو يتلو الرسالة فما راعه إلا غضب الأمير حين استهل صلاح الدين رسالته بقوله: «إلى أمير المسلمين يعقوب بن يوسف من الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب» ثم مغادرته القصر.

وشُـده ابن منقذ ودارت به الأرض. . أغَضِبَ الأمير من هذا الخطاب!؟ وأيُّ جفوة فيه!؟ وسرح به التفكير ولم يستفق إلا على يد بعضهم تربت على كتفه ثم تقوده إلى دار الضيافة في قصر الأمير.

وبـات ليلة يتقلب على فراش الأسى والحيرة. . وكان شاعرا فخطر له أن ينظم أبياتاً يمدح بها الأمير لعله يخفف سورة الغضب عنـده، فيصل إلى حاجته، ويظفر بمقصوده. . ونظم أربعين بيتاً وانتظر دعوة الأمير له عند الصباح، ليبلغه جواب الرسالة.

ودعي للأمير فلما دخل عليه قال له الأمير: «أيضن عليَّ ابن أيوب بلقب أمير المؤمنين وهـذه الملوك تخضع لصولتي، وهؤلاء هم الأمـراء يدينـون لي بالـطاعـة، والأرض الشاسعة ما بين برقة والمحيط رهن إشارتي، والأندلس بين يدي».

وحـار ابن منقـذ بِم يجيب الأمير وما شعر إلا وهو يقول: «يا مولاي لم يكن السلطان صلاح الـدين ينكـر فضلك أو يجحـد

قوتك، أو يغض من قدرتك، بل هو أعرف الناس بمولاي وأشدهم تقديراً له واعترافاً بفضله وسلطانه».

وسكت الأمير قليلاً ثم قال: «أتدري ما مضمون الرسالة».

فأجاب ابن منقذ: «بلى يا مولاي.. إنه يستنجدك ويستصرخك.. تكالب الأعداء على بيت المقدس فحاربهم ولكنهم كثير، وأسطولهم قوي، وأنت السند يا مولاي، أسطولك «الأسطول» مُره فليقطع الطريق على الصليبيين وهو لهم بالمرصاد..».

ـ ما دام ابن أيوب يعرف هذا فلِمَ استعمل الجفوة في الخطاب!؟

وحار ابن منقذ مرة أخرى وأراد أن يحول فكر المنصور عن ذلك فقال: أيأذن لي مولاي فأنشده أبياتاً.

ـ قل ما تريد.

وانطلق أبو الحارث ينشد الأمير مستهلا أبياته بقوله:

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته
إلى بحر جود ما لأخراه ساحل
إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى
إلى من سمت بالذكر منه الأوائل

إليك أمير المؤمنين ولم تزَلْ
إلى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت إليك البر والبحر مؤمنا
بأن نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصدك العلى فبلغتها
وأدنى عطاياك العلى والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانيا
تبلغك الآمال ما أنت آمل

وما انتهى من الإنشاد حتى لمح في عيني المنصور بريقا، وظن أن الأمير سيلبي استصراخ صلاح الدين ولكنه خاب في الأمل حين التفت إلى حاجبه يقول: «أجزل العطاء لأبي الحارث وأعطه لكل بيت قاله ألفا»، ثم التفت إلى ابن منقذ وقال: «إنما أعطيناك لشعرك وبيتك وفضلك. ولكن قل لابن أيوب: يعز علينا أن لا نلبي دعوتك فإن لدينا من الأعمال والحروب ما يستنفذ كل قوانا».

وأسقط في يد ابن منقذ.. وخرج من عند الأمير يجر أذيال الخيبة في الأمير وقد احتقره في نفسه واستصغر همته.. ورجع إلى الشام يائساً ممروراً فوصلها في منتصف عام ٥٨٨ هـ.

- ٢ -

ومضت ثلاث سنين والمسلمون يخوضون أعنف صراع بين

الشرق والغرب، وأخبارهم تترامى إلى المنصور يعقوب بن يوسف أمير الموحدين، وبشائر النصر كانت تتنزل على قلب المنصور بردا وسلاما. . إذ أدركته سورة الندم على عدم نجدة صلاح الدين منذ أن غادر رسوله قصره. . لقد بات الليالي الطوال يتقلب ألما على موقفه الجاف، وكم من مرة هم بنجدة صلاح الدين لولا أن كانت تتنازعه الأنانية البغيضة فينقض في النهار ما كان عقد النية عليه في الليل.

وعصف به الندم ذات ليلة، واشتدت وطأة الضمير على قلبه المؤمن، وتذكر عذاب الله الذي كان سيجده لو لم تؤيد السماء صلاح الدين. . فعقد النية على تكفير هذا الذنب. . ولكن ماذا يفعل الآن وقد انقضت الفرصة السانحة لقطع الطريق على الصليبيين. . وتذكر الثغور الشمالية الحد الفاصل ما بين الشرق والغرب، والإسلام والكفر، فليوجه عزمه إلى الجلالقة أعداء الإسلام وليغزهم، فهناك يجد ضميره المؤنب، وقلبه المعذب، راحة التكفير. .

ونزل مبكرا على غير عادة إلى المسجد ليؤدي فريضة الفجر في المسجد الجامع. . وما كاد يفرغ من الصلاة حتى دعا حاجبه وقواد جيشه، وأخبرهم بما عزم عليه من غزو الإفرنج في عقر دارهم، وأمرهم بإعداد العدة، ودعوة النفير، واستصراخ الهمم.

وبينما كان المنصور منهمكا في إعداد الحملة إذ ترامت لديه

الأنباء بأن (الأذفنش) ملك الفرنجة يعد العدة للزحف على جنوب الأندلس وإرجاع الموحدين إلى المغرب، وأنه استنجد بالفرنسيين والإيطاليين، فأمدوه بجنود لا حصر لها، يريدون بذلك أن يشغلوا المسلمين في الشرق والغرب، وأن تكون الحملة الصليبية عامة شاملة.

ووافقت هذه الأنباء هوى في نفس المنصور إذ زادته نشاطاً وأوقدت في المسلمين حمية الإيمان، وأسرعوا إلى المنصور ملبين النداء، فلم تمض بضعة أسابيع حتى احتشدت قرطبة بالعسكر المجر، والشباب المتحمس، والجنود الأشاوس.

وأرسل أمير المؤمنين عيونه يجوسون الثغور العليا ويأتونه بالأنباء عن حركات الإفرنج.. وجاءه رسول في أوائل شعبان سنة ٥٩١ هـ يقول: «يا مولاي إن جيشا عرمرما من جنود الأذفنش قد تحرك من طليطلة قاصداً قرطبة يحمل بين جنبيه الموت، على جانب عظيم من العدة والعديد، قد حشد فيه الأذفنش جيوش الكفر من كل ملة، وجمع فيه جنود أوروبا من كل جنس».

وسأله الأمير: «كم تحزر عدد هذا الجيش».

فقال الرسول: «إنهم كثير يا مولاي وأظن أن عددهم يربو على خمسمائة ألف من الجنود ما بين فارس وراجل، إن خيامهم يا مولاي تبلغ مائة وخمسين ألفاً، وخيلهم تتجاوز الثمانين ألفاً،

وبغالهم تربو على مائة ألف، وحميرهم لا تقل عن أربعمائة ألف يحمل أثقالهم وعتادهم. . إن قتال هؤلاء ليس بالأمر الهين».

وكـأنـه كان يريد أن يقول أن النصر محقق للأذفنش والخيبة مؤكدة للمسلمين فقطع عليه المنصور ما كان يفكر فيه. . قائلا: «لا تحـزن إن الله معنا. . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين».

- ٣ -

وفصل المنصور بالجيش العربي ليلة النصف من شعبان سنة ٥٩١ هـ قاصدا لقاء جيش الإفرنج. . والتقى الجيشان بمكان يقال له «الأرك» في شمال قرطبة بينها وبين طليطلة. .

هذا يتيه بقضـه وقضيضـه، وقـوته وعديده، وعدته وذخائره، يبيت لياليه مخمورا بهذا التيه، معجبا بهذا الاستعداد، مؤملا أن يمحو في المعركة الفاصلة جيشاً يقال له الجيش العربي. . وذاك ينكمش على نفسـه، خائفا يترقب، يبيت لياليه داعيا رب السماء طالباً مدده، ضارعاً إليه في ذلة واستكانة وخضوع.

وخـرج المنصـور يعقوب صبيحة يوم المعركة، يتفقد الجنود ويستنهض الهمم، وراعه أن يجد جنوده أشد حماساً منه، وأكثر ثقة بالله، فاطمأن واستبشر بالنصر والفوز.

وتحـرك الجيش الإسبـاني ميمنتـه وميسـرتـه، وثبت قلبه في مكانه، وصدر الأمر إلى الجيش العربي بالسكون فأشرعوا الرماح وسلوا السيوف، وانتظروا الجيش الزاحف بقلوب لا تعرف الهزيمة ولا الخوف، ونفوس واثقة بالنصر مطمئنة إلى الموت..

واصـطدم الجيشـان، ميامنـه ومياسـره، والتحمت السيوف، وتشـابكت الـرماح، وعلا الصراخ والضجيج، ونشر الموت ألويته فوق الجيش.. وتربص القلبان.. ووقف الأذفنش في وسط جيشه مرحاً طروباً يصدر الأوامر، ويوجه الإمدادات. وأمسك المنصور قلبه خوفا من الهزيمة وأخذ يصدر الأوامر في لهفة وحذر.. وتوجه مرات إلى السمـاء يدعـو في ضراعـة وإلحاح.. وجاء المدد من السماء فإذا بجنود الميسرة والميمنة الإسبانية تتراجع إلى الوراء..

يا لله.. إن هذا أول النصر.. ونظر فإذا القلب يتحرك بقيادة الأذفنش.. واعمل فكره، واستلهم الخطة، وأصدر الأوامر بإمداد ميسـرتـه وتـراجـع بقلب جيشه قليلا. وتقدم قلب جيش الأذفنش وانـدفـع يريد قلب الجيش العربي المنسحب، وأصدر المنصور أوامـره إلى الميسرة والميمنة بقطع خط الرجعة على قلب الجيش الإسباني.. وانشطر الجيش الإسباني شطرين.. شطر منسحب تطارده ميمنـة الجيش العربي وميسرته، وشطر أطبق عليه الجيش العـربي.. وسـرت الإشـاعة في صفوف الأعداء «قتل الأذفنش» فخارت عزائمهم، ووهنت قواهم، وركنوا إلى الفرار.

وانجلت المعركة عن فوز المسلمين وغنموا ما عظم قدره، وقتلوا من الإفرنج ـ فيما قيل ـ مائة ألف وستة وأربعين ألفاً، وأسروا ثلاثين ألفاً. . وانحازت إليهم أموال الإفرنج وغنائمهم حتى فاقت الحصر، وعم الخير المسلمين فبيع الأسير بدرهم، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وساد السرور جميع المسلمين، وانتشرت الأفراح في جميع الأندلس والمغرب. .

- ٤ -

وسرى خبر إلى المنصور بأن الأذفنش قد ظهر فجأة في طليطلة وأنه قد حلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وآلى الا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرساً ولا دابة حتى يأخذ بالثأر ويدحر المسلمين. . وضحك المنصور حين سمع هذا الخبر وقال: «واتبع رأسها الذنبا» وأمر الجيش بألا يتفرق، وأن يستعد لمطاردة الفلول، والزحف إلى طليطلة. .

وسار الجيش العربي ـ قبل أن ينعم بالراحة ـ إلى طليطلة وحاصرها؛ وضيق عليها الخناق، ورماها بالمجانيق. . واستمر الحصار أياما وأيقن الأذفنش بأن المنصور لا بد فاتحها فعمد إلى الحيلة فأرسل إلى المنصور والدته وبناته ونساءه يبكين بين يديه، ويسألنه إبقاء البلد عليهن.

ورق قلب المنصور، وأدركته سماحة الإسلام، فتأسى برسول الله ﷺ في عفوه عن أسرى بدر، فمنَّ على الإفرنج، وعفا عنهم، وأعطى الأمان للأذفنش، وصالحه على أن يدفع له الجزية.. وعاد إلى قرطبة.. فأقام شهراً يقسم الغنائم، ويوزع الأسلاب.

وطابت نفس المنصور، وارتاح ضميره.. لقد كفَّر عن ذنبه فأنزل الضربة بمئات الآلاف من الإفرنج ولولاه لكانت حربا على إخوانه المسلمين في المشرق.

- ٥ -

وما أن وصلت أنباء هذه الغزوة إلى أبي الحارث شمس الدين بن منقذ حتى أسرع إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي يقول له: «يا مولاي.. لقد صدق ظني. أدركت سورة الندم يعقوب بن يوسف، فكفَّر عن ذنبه بغزاة كانت ماحقة للصليبيين في المغرب.. فقر عيناً يا مولاي.. لقد أعانك الله حين تقاعس عنك فانتصرت.. وهداه الله بعد أن أخطأ فانتصر.. كانت غايتك قهر العدو وتطهير الأرض الإسلامية منه، وكذلك كانت غايته.. والخذلان للأعداء مشرقا ومغربا».

ونظر السلطان صلاح الدين إلى ابن منقذ ونظر ابن منقذ إليه.. كانت في أعينهما دموع.. إنها دموع الفرح والإيمان.

في سبيل الاستقلال

ساءت أحوال الدولة العباسية بعد عهد المعتصم وتغلب الأتراك على الأمر، فاضطربت أمور الخلافة، وانتقصت أطرافها وانتشر ظلم الولاة في كل مكان. . وفي سنة ٢٥٤ هجرية أنشأ «أحمد بن طولون» في مصر دولة مستقلة، وأصلح من شأن مصر، وابتعد بها عن الفوضى والاضطراب، واستمرت الدولة الطولونية حتى سنة ٢٩٢ هـ حين عادت جيوش الخليفة المكتفى وأكثرهم من الأتراك إلى احتلال مصر والعود بها إلى عهد الفوضى سمة الخلافة في ذلك الحين.

ولكن رجلا مصرياً هو «محمد بن علي الخليجي» استطاع أن يرد الجيوش التركية الواغلة على أعقابها وأن يستقل بمصر زمنا قصيراً.

وهذه قصته.

وقف «أحمد بن محمد الحبيشي» أحد شعراء مصر بين يدي محمد بن علي الخليجي أمير مصر يمدحه ويثني عليه وينشده قصيدته في الإشادة بعمله الاستقلالي:

غضبت لمصر وما نالها
وشردت بالخوف، ومن غالها
تلافيتها بعد أدبارها
وأقيلت تطلب إقبالها
وكادت تؤوه شوقا إليـ
ـك وتظهر بالشوق بلبالها
وما شوقها كان من طبعها
ولكن ربك أوحى لها
لقد فرَّج الله كرب النفو
س وبلغها فيك آمالها
ولما رأيناك في مصرنا
منحنا الإمارة إجلالها
وما زلت تطلبها همة
وتركب بالسيف أهوالها
وتعلم نفسك أن الأمور
إما عليها وإما لها
تمنوا لقاك فلما رأو
ك رأوا للمنية أظلالها
ومروا يطيعون في كل شيء
رأوه المنايا وإنزالها

وأعـادت الأبيات إلى الخليجي ذكـرى ماضية . . كيف كان وكيف أضحى . . فأخذ يستعيد صوره الهانئة، ويتأمل ظلاله التي ارتسمت في ذهنـه . . وبينما كان الشاعر مستمرا في الإنشاد كان الخليجي يتذكر ماضيه البعيد . .

* * *

في بيت حقير من بيوت الفسطاط جلس رجل وامرأته يتشاكيان الفقـر والبؤس، ويتألمان لما أصابهما من سوء الحال، وقلة ذات اليد، وإدبار الدنيا، ولا سيما بعد أن رزقهما الله ولدا. وقال الزوج لزوجـه: «مـا ترين أني فاعـل، ضاقت عليَّ الـدنيا بمـا رحبت، وأهمني أمر ابننا محمد».

وأجابت الزوجة: فرج الله قريب فلا تبتئس.

وأجـابهـا: إني أفكر في الانضمام إلى جيش الوالي الجديد «أحمد بن طولون».

فذعـرت الـزوجة وقالت: «لا يا أبا محمد إن الانضمام إلى الجيش خطر، الفتن كثيرة، والقتل منتشر، وإني أخشى عليك».

فطمـأنهـا قائـلاً: «إن ابن طولـون قد نظم الجيش، وأغدق العطاء، وإننا كما تعلمين في شدة وفاقة»، وعبثا حاولت المرأة أن تثنيه عن عزمه فلم تفلح.

ومضت أيام فإذا علي الخليجي جندي من جنود ابن طولون

يروح ويغدو، وقد حسن حاله، ورغد عيشه واطمأن على مستقبل ابنه بعد أن وجد مورد الرزق.

وبنى ابن طولون مدينة «القطائع» بجانب المقطم فانتقل إليها الخليجي مع أسرته، وهناك، في هذه المدينة الحافلة بكل أنواع الترف والقوة، الممتلئة بالجنود والعساكر، المحتشدة بالشعب المصري المتنعم بحياة الاستقلال في عهد ابن طولون.. أخذت حياة الصبي «محمد علي الخليجي» تقع على معان جديدة لم يكن يراها، واختلط بأبناء الجنود، وتعلم فنون الحرب، وقواعدها حتى بزهم في حذقها، وفاقهم في إتقانها.

* * *

وتنبه الخليجي على صوت الشاعر وهو يقول:

وكان أبوك خليج العفاة
وبحر الثغور التي عالها
به كانت الروم في أمنها
تفزع للذنب أطفالها

وجمح به الخيال مرة أخرى.

* * *

يا لله.. ما ألم ذلك الوداع بين أمه وأبيه، لأول مرة يفترق

الزوج عن زوجه ولأول مرة يقدر لهذا الجندي أن يذهب مع جيش ابن طولون إلى الصعيد لإخضاع الثائرين. . ها هي الدموع تطفر من عينيه حين رأى أمه تبكي. . وها هو أبوه يطمئنها. . إنه سيعود سالما.

وعاد الأب سالما ثم رجع إلى الحرب وعاد منها مرات ومرات حتى كانت سنة ٢٦٩ هـ حين خرج ابن طولون لمنازلة الروم في ثغور الشام. . وخرج أبوه مع جيشه العرمرم. كانت الملاحم مع الروم قاسية شديدة أبلى فيها الأب بلاء حسنا حتى طار ذكره في الآفاق، وأصبح اسمه علما على الشجاعة، فخافته جنود الروم وقدره زملاؤه، وعينه ابن طولون قائدا من القواد. . وهذا هو أبوه يعود إلى أمه فتلقاه بسرور، وتسأله عن أخباره فيحدثها حديث الحرب والبطولة، وكيف خاض المعارك، وجال في المعامع، وكيف أبلى مع جنود مصر في قتال الروم ومغالبة الأعداء، حتى حققوا الفوز لجنود مصر، ورفعوا اسم مصر عاليا وأعلامها خفاقة. . ويتذكر الخليجي كيف أثّر فيه حديث أبيه حتى قال له: «إني أحب الحرب يا أبي وأحب أن أكون جنديا من جنود مصر».

وتلاحقت الصور في مخيلته. . فها هو يلتحق بالجيش الطولوني في عهد «خمارويه بن أحمد بن طولون» فيخوض معه المعارك في الشام ضد جنود الخليفة، ويكتسب ثقته فيقربه إليه ثم يعينه قائدا من قواد الجيش على حداثة سنه. . وها هو الحال يسوء

بعد خمارويه ويتنازع آل طولون الملك، ويفترق الجند شيعاً وأحزاباً. . . فتزحف جنود الخليفة إلى مصر بقيادة «محمد بن سليمان» فيفتح القطائع، وينهب جنوده الفسطاط ويكسرون السجون ويهدمون الدور ويحرقونها، ويستبيحون الأعراض والأموال، ويأتون بكل قبيح، ويذبح أبناء طولون ذبح الأغنام ويعود الأمر كما كان. تعسف في الأحكام، واشتطاط في تطبيق القوانين، وإيقاع بين الناس، وابتزاز للأموال.

ويرى الخليجي استقلال مصر كيف زال، وتأبى عليه وطنيته ومصريته أن يرى انهيار البناء الذي بناه ابن طولون، وأن يشهد هذه الفظائع فيرسم في ذهنه خطة ثم يبدأ في تنفيذها: ويلتحق بجند محمد بن سليمان، ويعينه ابن سليمان قائدا كما كان في الجيش الطولوني، ويأخذ في جمع الأنصار من مصر سرا، حتى إذا استقر الأمر في مصر، ورحل إلى ابن سليمان مع الجنود إلى العراق، وخيّر القائد العباسي - حين وصل إلى فلسطين - جنوده بين المضي معه إلى العراق أو الرجوع إلى مصر. . فرجع محمد الخليجي وثار في الرملة على الخليفة بمن معه من الأنصار. ورجع إلى مصر ووقف شعبها إلى جانبه.

وذعر «عيسى النوشري» العامل على إدارة مصر المالية، ومادت به الأرض من هذه الثورة الفجائية التي لم تكن في حساب القائد العباسي الذي رجع إلى بغداد، فهرب إلى الإسكندرية تاركاً

الفسطاط والقطائع ليدخلها الخليجي فيحررها من ظلم الولاة مرة أخـرى. . واستولى الخليجي على القطائع والفسطاط وأقبل عليه شعراء مصر مهنئين.

* * *

وانتهى الشـاعر من الإنشاد، وتعاقب الشعراء بعده، وانتهى الاحتفـال الصغير باستقلال مصر، واطمأن الناس إلى أن عاصمة مصر بخير، وأذاع الخليجي بأنه سيعمل على استكمال الاستقلال وإجلاء جنود الخليفة ـ ومعظمهم من الأتراك ـ عن مصر جميعها.

وابتدأ بمطاردة ابن النوشري وجنوده، فأجلاهم ولحقهم إلى العريش حيث التقى بجنود «أحمد بن كيغلغ» فخاض معه معركة رهيبة هزمه فيها أقبح هزيمة ورد لمصر اعتبارها، وثأر لها.

وبلغت أخبار الهزيمة مسامع السلطة العليا ببغداد وعظم على الأتـراك المحيطين بالخليفـة العبـاسي الضعيف أن يهزمهم بطل مصـري، ويحـرر مصر من ظلمهم وجورهم، فجهزوا الجيوش، وندبوا القواد، وسيروا إليه جيشا عظيما يقوده «فاتك» مولى الخليفة ويعينه «بدر الحمامي».

وسمـع محمد بن الخليجي بجيش الأتراك فجهز لهم جيشا مصريا قويا. . والتقى الجيشان في أرض مصر. . وأدرك فاتك أن الجيش المصـري قوي، فعمـد إلى إثارة الفتنة في جيش مصر،

واستغل اسم الخلافة في الإيقاع بينهم، واتخذ اسم الدين ستارا يخفي وراءه دسائسه، فلما التحم الجيشان تراجع الجيش المصري ثم استسلم نتيجة الدس والإيقاع.

واختفى الخليجي في الفسطاط، في الحي القديم الذي ولد فيه.

عاد إليه خائفاً يترقب مشفقاً يتألم، يقضي لياليه دامع العين باكي القلب، بين زملاء له شاطروه غرفة مظلمة في زقاق حقير.

وظل كذلك أياما حتى كانت ليلة سمع فيها ضجة وجلبة فأيقن أن العسكر قد عرفوا مكانه، فحاول الفرار. . ولكن ليس من ورائه فائدة، فاستسلم وصحبه مرغمين.

واقتيد إلى مدينة السلام في سلاسل الذل! وقيود الهوان، حتى دخلها يوم الخميس في منتصف شهر رمضان سنة ٢٩٣ هـ من باب الشماسية حيث قدم المكتفى الخليفة العباسي مع عشرين من أصحابه.

ونظر إليه الخليفة وقال: «هذه عاقبة كل من يريد الخروج على السلطان».

ولم يتمالك الخليجي نفسه من هذه السخرية بل قال في مرارة: «إننا ندين للخلافة بالطاعة، ولكننا نكره الظلم والبغي والعدوان الذي أحدثه ولاتك باسمك يا مولاي».

وأطـرق الخليفـة . . لقد وجد ما قاله حقا . . ولكنه الضعيف الذي لا يملك من الأمر شيئا . .

وأخذ محمد بن علي الخليجي إلى السجن . . ثم مثّل به بعد ذلك، وطيف به في الأسواق، ثم قتل، ولكنه كان مع ذلك راضي النفس، قرير العين، مطمئن الضمير.

لقد قام بواجبه وما عليه أن خذلته الأقدار.

لا إله إلا الله

صَــرْخَة ونَجْــدَة

الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل صقر قريش أمير من أمراء الأندلس الذين جاهدوا في سبيل الله وعملوا على توطيد أقدام العرب هناك، وكانت له مع الروم وقائع كثيرة.

وله سنة ١٥٤ هـ ومدة ملكه ٢٦ سنة. وكان أشبه رجل بأبي جعفر المنصور العباسي في شدة بأسه وحسن تدبيره، وكان من أقرب الناس إليه الشاعر أبو العلاء عباس بن ناصح الثقفي من أهل الجزيرة الخضراء جنوب الأندلس، وقد اتصل بالحكم ومدحه فولاه قضاء شذونه والجزيرة.

- ١ -

قال العباس الشاعر:

ورجعت إلى الأندلس من العراق - وكان هذا آخر عهدي بها - فترددت على الأمير الحكم بن هشام سيد الأندلس، واتصل سببي بسببه وأصبحت شاعره المقرب لديه، الأثير عنده فغمرني بالفضل، وحباني بالنعمة، وقيدني بأياديه، فأقمت بالأندلس لا أبارحها.

ولكنني كنت ذا روح هائمة، ككل شاعر، مغرم بالرحلات تواق إلى الغرائب فاستأذنت الحكم لأتوجه إلى الثغر على مشارف بلاد الإفرنج حيث كانت الحروب سجال بين العرب والروم، والمناوشات لا تفتر، والعداء مستحكم، لعلي أقع على معنى غريب أسجله في شعري، وأُجريه على لساني. . وكنت أجوس الثغر على أطراف مملكتي قشتالة وبرشلونة. . انتقل من بلد إلى بلد ومن فج إلى فج، وتسلمني الدروب إلى الدروب، وتتلقفني الوديان وادياً بعد واد، حتى نزلت بوادي الحجارة بالثغر الأعلى[1] في ليلة مظلمة معتمة. . فجلت في الوادي أتلمس بيتا آوي إليه، فرأيت عن بعد بصيص نور فاقتربت منه. . وما راعني إلا أن أسمع نواحاً وبكاء ينبعث من بضعة أبيات تضم سكان الوادي من المسلمين.

ودفعني حب الاستطلاع إلى استراق السمع أريد بذلك الوقوف على خبر القوم، فإذا بي أسمع امرأة تستصرخ وتدعو: «واغوثاه بك يا حكم، لقد أهملتنا حتى كلب العدو فأيمنا وأيتمنا»، وطرقت الباب ثم ولجت. . فإذا امرأة شاحبة اللون دامعة العين في صوتها رعدة، قامت تستقبلني فقلت لها: «ما بك يا أمة الله؟».

قالت: مَنْ أنت؟ وما شأنك؟

---

(١) الثغر الأعلى سرقسطة في أقصى شمال إسبانيا.

قلت: عربي مثلك.

قالت: مرحبا.. عربية تشكو إلى عربي.

ثم مسحت وجهها بخمارها وهي تقول: «ولكن حق الضيافة أوجب»، وخرجت ثم عادت تحمل كِسراً من خبز، وقعباً مملوءة لبنا وقدمتها وهي تعتذر «يا أخا العرب.. إن الدار بلقع، أغار علينا نفر من جند الملك «أليط» ملك الإفرنج، فنهبوا الديار، وأسروا الرجال، وقتلوا الأطفال، وكنت خرجت إلى سرقسطة لبعض شأني فعدت فوجدت الديار خالية إلا من عجائز ضعاف، هن الآن يُفنين بقية القوة عندهن في البكاء والنواح».

وأثّر فيَّ حديثها، ورثيت لحالها وأدركتني نخوة العرب فقلت: «لا تجزعي يا أخت.. ستأتيك نجدة الأمير على الخيل البُلق..».

- ٢ -

قال العباس:

وبت ليلتي ثم أصبحت الغداة، فركبت فرسي، ورجعت أدراجي أهرول إلى قرطبة لا ألوي على شيء وقد أخذ مني حديث هذه المرأة كل مأخذ وأثار فيَّ عاطفة غريبة من الرثاء والشجاعة، ونحن معشر الشعراء تؤثر فينا النسمة الخفيفة فما بالك وهذه ريح عاتية!! وصنعت في طريقي قصيدة أستنجد بها الأمير، حتى إذا

دخلت قرطبة ذهبت إلى بيتي فأصلحت نفسي وهيأت شأني، ثم أتيت القصر فاستأذنت على الأمير، وأنشدته قصيدتي التي حين وصلت إلى هذين البيتين:

تململت في وادي الحجارة مسئدا
أراعي نجوما ما يرون تغيراً
تدارك نساء العالمين بنصرة
فإنك أحرى أن تغيث وتنصرا

هب واقفا وقال: على رسلك أبا العلاء أخبرني بالخبر..

قلت: «يا مولاي امرأة في الثغر استنجدت بك واستصرختك لتغيثها من علوج الروم».

قال: «أحقاً ما تقول؟».

قلت: «كانت تستغيث وتقول: «واغوثاه بك يا حكم لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا فأيمنا وأيتمنا».

قال: «والله لأغيثنها حتى تقر عيناها.. أدع لي ابن المغيث».

ودعى عبد الكريم بن عبد الواحد بن عبد المغيث حاجب الأمير، وقائد جنده فأمره بإعداد الجند ودعوة النفير.. وقال:

«إن في الثغر نساء عربيات يتألمن ويستصرخن، ويبتن على فراش الهم والأسى، ونحن هنا نلهو ونلعب، نستطيب المأكل ونفترش الوثير!!».

- ٣ -

ومضت ثلاث ليال . . واحتشد الجند في قرطبة وفي مقدمتهم مماليك الأمير، وقد زاد عددهم على خمسة آلاف على الخيول البلق الضوامر، وقدم على رأس الجيش ابن المغيث الذي صعد إلى الحكم وقال: «ها هم الجند قد استعدوا يا مولاي وهم ينتظرون . . » .

وخرج الحكم من قرطبة إلى الثغر يقود جيشاً لجباً إلى ساحة القتال، وقد بعث فيهم الحمية حديث المرأة، وأثار نخوتهم خروج الأمير.

وأتى الحكم وادي الحجارة . . فوقف على المرأة واستوضحها الخبر، وسأل عن الخيل من أي أرض العدو كانت؟ فأخبرته . . فخرج إلى تلك الناحية فغزا الفرنجة والتحم معهم في مواقع عدة وخرب ديارهم، وأثخن فيهم الجراح، وفتح حصونهم، وسقطت مدنهم واحدة بعد أخرى في يديه ولم يدع في مملكة قشتالة بلداً إلا غزاها . . والنصر يحدوه، والغنائم تتكاثر، وكلمة الإسلام تعلو على هاتيك الربوع .

وعاد بعد الغزو إلى وادي الحجارة، وقد استخلص الأسرى من رق الأسر، وبعث إلى النساء من بقي من رجالهم على قيد الحياة، ووزع على سكان الوادي كثيراً من الأموال التي اغتنمها .

وأحضر المرأة، وضرب رقاب الأسرى بين يديها، وقال للعباس: «سلها هل أغاث الحكم من استنجد به».

فقالت: «والله لقد شفى الصدور، وأنكى العدو، وأغاث الملهوف، أغاثه الله وأعز نصره»، فارتاح لقولها وبدا السرور على وجهه ثم أنشد ـ وكان شاعرا ـ:

ألم تر يا عباس أني أجبتها
على البعد اقتاد الخميس المظفرا
فأدركت أوطاراً وبردت غلة
ونفست مكروبا وأغنيت معسرا

فقال العباس الشاعر: «نعم يا مولاي جزاك الله خيراً عن المسلمين».

وعاد الجيش إلى قرطبة بعد أن أبلى في الجهاد بلاء حسناً وأغاث تلك المرأة التي استنجدت برجل.. فكانت من المرأة صرخة في ليل.. ومن الحكم نجدة في جيش.

أتبنون بكل ربع آية ؟

عبد الرحمن الناصر. أحد الأمراء الأمويين الذين حكموا الأندلس. ملك من سنة ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ وهو أول من لقب نفسه بأمير المؤمنين من أمراء الأندلس. كان خليفة بعيد الهمة، طموح النفس، قوي العزيمة عظيم الشأن، لم تر الأندلس في جميع عهودها عهداً أكثر استقراراً ورخاء من عهده، وفي أيامه الطويلة بلغ المسلمون في الأندلس أرفع درجة وأعلى مكانة.

كان يقسم الأموال التي تجبى أثلاثاً:

ثلثا لمحاربة الأعداء، وثلثا للبنيان، وثلثا للادخار يصرف عند الحاجة إليه. وقد بنى في عهده مدينة الزهراء في مدينة قرطبة وبنى فيها مسجدا ضخما.

قال الراوي: وانهمك الناصر في بناء مدينة الزهراء منذ سنة ٣٢٥ هـ، وكان قد وكل على عمارتها ابنه الحكم، لم يثق برجل غيره لشدة حرصه على أن تخرج آية في فن العمارة، فريدة في البنيان.. وكان الناصر حين يفرغ من الجهاد لا يرى إلا مشغولا بالإشراف مع ابنه على البناء.

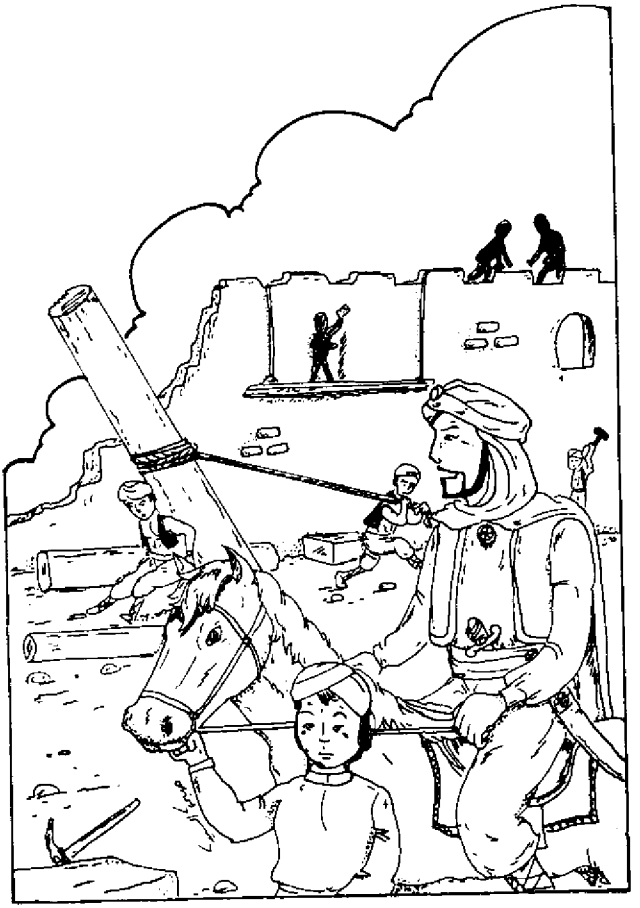

وكانت دولة الإسلام في الأندلس ـ يومئذ ـ قوية البأس عظيمة السلطان؛ وكان الناصر مرهوب الجانب، خشيه ملوك النصارى في أوروبا فأرسلت تطلب وده؛ وتنافست في مرضاته، ولما تسامعوا بانهماكه في بناء الزهراء أرسلوا إليه الهدايا الكثيرة من العمد الرخامية والأحواض المنقوشة، وساعدوا عماله على استحضار كل ما يلزم لعمارة الزهراء.

وكانت عنايته بالغة ببناء «قصر الزهراء» أراده أن يخرج على غير مثال، متناهياً في الفخامة والجلال، فكان ينفق كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدل ستة آلاف صخرة سوى الصخر المنصرف في التبليط، وكان يخدم في الزهراء كل يوم ٢٤٠٠ بغل و ٤٠٠ دابة ينفق عليها ثلاثة آلاف مثقال ذهب شهرياً، وكان يرد الزهراء من الجير والجص كل ثالث من الأيام ألف ومئة حمل، وكان ينفق في كل عام ٣٠٠ ألف دينار مدة خمسة وعشرين سنة. وقد جلب لقصره ١٠١٣ سارية من إفريقيا، وحوضا منقوشا بالذهب غريب الشكل عالي القيمة، جلبه إليه أحمد اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من القدس، وحوضا آخر أخضر منقوشاً بتماثيل الإنسان، فنصبه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وجعل عليه اثني عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد وإلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثعبان

وعقبان وفيل، وفي الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، كل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها.

قال الراوي: وكان منذر بن سعيد قاضي الجماعة رجلا صالحا تقياً ورعاً، لا يرهب في الله أحداً، ولا يخشى فيه سلطاناً، وكان غير راض عما شغل الناصر فيه نفسه من هذا البنيان، فكان يظهر في كل مناسبة عدم رضاه ويستنكر إنفاق هذه الآلاف من الدنانير.

دخل على الناصر مرة وهو مكب على الاشتغال بالبنيان فوعظه وزجره فأنشد الناصر:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشان

فقال القاضي:

يا باني الزهراء مستغرقا
أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقا
لو لم تكن زهرتها تذبلُ

فقال الناصر: «إذا هب عليها نسيم التذكار والحنين، وسقتها مدامع الخشوع لا تذبل إن شاء الله تعالى».

فقال أبو الحكم منذر: «اللهم أشهد أني قد بثثت ما عندي ولم آل نصحا».

وكان لهذا الزجر أثره في نفس الناصر، لأن الناصح إذا قصد بنصحه وجه الله كانت الآذان صاغية لنصحه، والقلوب واعية.. فأراد الناصر أن يجعل في عمله شيئا يبتغي به مرضاة الله فأمر ببناء مسجد الزهراء وحشد لذلك ألف عامل من حذاق العمال فاستتم بنيانه في ثمانية وأربعين يوماً فجاء في «غاية الإتقان»؛ من خمسة أبهاء، عجيبة الصنع، عرض كل منها، ثلاثة عشر ذراعا؛ وطول صحنه المكشوف ثلاث وأربعون ذراعا «وجميعه مفروش بالرخام الخمري»، وفي وسطه فوارة يجري فيها الماء وطول المسجد أجمع ٩٧ ذراعاً؛ وعرضه ٥٩ ذراعاً، وطول صومعته ٤٠ ذراعاً، وعرضها عشرة أذرع، واتخذ للمسجد منبراً بديعاً، جعل حوله مقصورة عجيبة الصنعة[1]. وأكمل بنيان قناة كان قد ابتدأها قبل بناء المسجد وهي قناة «يجري ماؤها بتدبير عجيب، وصفة محكمة إلى

---

(١) نفح الطيب.

بركـة عظيمـة عليهـا أسـد عظيم الصـورة، بديع الصنعة، شديد الـروعة»، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر، مطلي بذهب أبريز، وعيناه جوهرتان لهما لمعان شديد يجوز هذا المـاء إلى عجز هذا الأسد فيمجه في تلك البركة من فمه، فيبهر النـاظـر بحسنـه وروعـة منـظره، وثجاجة صبه فتسقى من فجاجة الجنان[1] ويتوضأ من مائه المصلون، ويستسقي منه الناس.

ولكن منذر بن سعيد القاضي لا يريد من الناصر الانهماك في البنيان مما شغله عن واجب الخلافة، وكان لا يريد منه أن يكفّر عن إنفاق آلاف الدنانير ببناء مسجد، يتفنن في زخرفته وتزيينه، بل كان يريد من النـاصـر أن ينصـرف إلى ما عهد فيه من جهاد الأعداء، ومغـالبة الإفرنج وأن ينهمك في إصلاح المجتمع وتحسين أحوال المسلمين. . فما أن انتهى الناصر من بناء المسجد الفخم، وبناء الـقصـر العـظيم الـذي كان آية في إتقـان الصنعـة، وحسن المستشرق، وبراعة الملبس والحلة: ما بين مرمر مسنون، وذهب موضـون، وعمـد كأنهـا أفرغت في القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك كالحياض، وتماثيل عجيبة الأشخاص، وسطح ممرد مشرف على روضة غناء فيها «مجلس الذهب» وقبة بديعة الزخرفة. . ما أن انتهى الناصر من ذلك وعطل في سبيل هذا البناء الصلاة الجامعة ثلاثـة أسـابيع حتى غضب المنـذر لدين الله فقـام بالصـلاة في

---

(١) نفح الطيب.

المسجد الجامع وخطب الناس خطبة قرع الناصر فيها بزواجر الكلم، وحسن الموعظة، وشدة التذكير، استفتح بقوله تعالى: **﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾**، **﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾**.

ومضى القاضي في الزجر، فذم الاستغراق في تشييد البنيان حتى تتعطل من أجله شعائر الرحمن، وقبح المبالغة في الزخرف والإسراف في الإنفاق عليه بكل كلام جزل وقول فصل.. وجرى فيه طلقا تفيض من لسانه جواهر الحكمة، ومحاسن الوعظ، وتدفعه الغيرة على الدين، فيجد القول طيعاً، والمعاني حاضرة، ويحثه الإخلاص على الإفاضة فلا يتلعثم، ويستشهد بخطبته بآيات الله الدالة على الوعيد لمن خالف أمره، وكان أن انتزع في استشهاده قوله تعالى: **﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير، أم من أسس بنيانه على شفا جُرُف هارٍ فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين. ولا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾**.

قال الراوي: واستمر القاضي يلقي بالحكم الالهية غير هياب ولا وجل، ويسوق من الأحاديث والآثار ما لو أنزل على جبل لرأيته

خاشعـاً متصـدعـاً من خشية الله، ولم تمنعه هيبة السلطان، وقوة النـاصـر عن الكـلام.. حتى أدكـر الناس، وخشعت أبصارهم، ورقت قلوبهم، وتـذكـروا الـذنـوب فنـدموا، وفاضت من أعينهم الأدمـع، وضجـوا بالـدعـاء والاستغفـار، وأعلنوا التضرع والتوبة والابتهـال.. وأخـذت خليفتهم الناصر غاشية الندم، ورق فؤاده حتى دمعت عيناه، واستعاذ بالله مع العائذين من سخطه.. إلا أنه وجد على القاضي لغلظ ما قرعه به على ملأ الناس فأقسم في قرارة نفسه، ليتركن الصلاة خلف منذر بن سعيد.

وعـاد النـاصـر إلى قصره الجديد حزيناً كئيباً.. والتقى بابنه الحكم في القصر. وهال الحكم أن يرى آثار الدموع في عيني أبيه وهو الذي ما دمعت له عين في أشد الأوقات حرجاً وضيقاً، وراعه أن يجـد الكـآبة تعلو وجهه وأن يراه واجما حزينا.. فسأله عما به وشكا إليه الأب ما لقيه من القاضي منذر بن سعيد قائلا: «والله لقد تعمدني منذر بخطبته وما عنى بها غيري، فأسرف عليَّ وأفرط في تقـريعي، وأكثـر من تفـزيعي وترويعي، ولم يحسن السياسة في وعظي فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني»، واستشاط الابن غضبا أن يروِّع قاض وليَّ نعمته، وأن يفزع منذر بن سعيد أمير المؤمنين فقال لأبيه: «فما الذي يمنعك عن عزل منذر عن الصلاة بك وأن تستبدل غيره إذ كرهته؟!»، فزجره الأب وانتهره قائلا: «أمثل منذر في فضله وورعه وعلمه ـ لا أم لك ـ يعزل في إرضاء نفس ناكبة عن

الرشد!؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكنه أحـرجني فأقسمت ولـوددت أنني أجـد سبيلا إلى كفـارة يميني بملكي.. بل يصلي في الناس حياته وحياتنا إن شاء الله فما أظننا نعتاض عنه أبدا».

قال الـراوي: واهمت النـاصـر خطبـة ابن سعيد فبات ليلته يتقلب على فراش الألم، وتتنازعه العواطف الموزعة بين الاعتزاز بالملك والخـوف من الله.. يريد أن تكـون مدينـة الزهراء مدينة عظيمة تليق بأكبر خليفة إسلامي شهدته الأندلس، ويتيه بها على ملوك الإفـرنـج الـذين تغمرهم المظاهر، وتبهرهم الأبنية العظيمة وأبهة السلطان والملك، ولكن ابن سعيد حذره وخوّفه عاقبة الغرور والتعـاظم.. وأخـذ ضميره يجـادل نفسـه قائـلا: «وما عاقبة هذا البنيان؟ أليس إلى الفناء والضياع؟ وما منقلب الإنسان أليس إلى الله؟ ومـاذا يأخـذ الإنسـان من الـدنيا غير العمـل الصـالح يرفعه الرحمن إليه؟».

وتقـول النفس: «وهـل إقـامـة البنيان إلا عمـران للأرض؛ واستصـلاح للدنيا؟ والله قد خلق الخلق وهيأهم لعمارة الدنيا.. أفي الـدين ما يمنـع العمـران إذا صحبـه التقـوى والورع، ولزمه الخشوع والإنابة إلى الله.. والناصر من هؤلاء!؟».

وطـال الجـدل بين النفس والضمير، وتغلبت النفس.. ونام

الناصر بقية الليل يترقب الفجر ليحضر ابن سعيد.

* * *

وكان الناس قد التفوا حول ابن سعيد عقيب الخطبة، يخوفونه ويحذرونه، وهم يعلمون أنه لا يخاف إلا الله.

وقال قائل منهم: «أتظن أن الناصر يغفرها لك يا أبا الحكم ما كان أغناك عنها».

وضحك ابن سعيد وأجاب: «أتظن يا هذا أن رضا الناصر يوازي غضب الله!؟ لا أُبالي إذا أرضيت رب الناصر بغضب عبدالله مغلوب على أمره».

وسكت الرجل.. وسار ابن سعيد يريد الخروج من المسجد ولكن رجلا اعترضه وقال: «لقد خرج الناصر من المسجد غضبان، وما أظنه إلا مرسلا وراءك رسولا، هلا التمست للناصر الرئيس أبا عثمان بن إدريس ليزيل ما علق بنفسه، وهو رجل ذلق اللسان، مقرب إليه».

واستضحك ابن سعيد مرة أخرى ثم قال: «أبلغ بكم الخوف إلى هذا الحد على رجل ما طرق الخوف قلبه من الأمير ولا ممن هو أكبر من الأمير، فلتخافوا ما شئتم، وليفعل الناصر ما شاء.. إن معي ربي سيهدين..».

وأعرض القاضي ابن سعيد عن الناس وذهب إلى بيته، حيث لم يخرج منه إلا ليؤدي الصلوات في المسجد الجامع . . وما أقبلت صبيحة السبت حتى كان رسول الناصر يستدعي القاضي لمقابلته .

وتهيأ القاضي للذهاب بعد أن لبس أرث الثياب وأردأها . . وتعلقت به امرأته خائفة مروَّعة فزجرها ونهرها وخرج مع الرسول ثابتاً مطمئناً .

ودخل ابن سعيد على الناصر فإذا به قد استقبل الناس في «مجلس الذهب» حيث فرش بأصناف الديباج وفاخر الرياش، وحيث مدت الأطعمة لمن في المجلس من أكابر العلماء والوزراء والقواد . . فجلس ابن سعيد في آخر المجلس، فأومأ إليه الناصر أن يقعد بقربه، فقال: «يا أمير إنما يقعد الرجل حيث انتهى به المجلس ولا يتخطى الرقاب» .

قال الراوي :

وسادت فترة سكون كان القاضي منذر بن سعيد قد أطرق فيها واجماً لا يرفع بصره، ولو نظرت إليه لعلمت أن الله قد ألقى السكينة على قلب هذا الرجل وأنه قد خلع عليه سمة للملائكة هيبة ووقارا . . » .

وقطع الصمت صوت الناصر أمير المؤمنين يخاطب من في

المجلس: «هل سمعتم أو رأيتم ملكاً كان قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه؟».

فقالوا: «لا والله يا أمير المؤمنين، وإنك لأوحد في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ولا انتهى إلينا خبره».

وسر الناصر بهذا الجواب، وانتفخت أوداجه كبراً وافتخاراً والتفت إلى القاضي وقال: «وأنت يا أبا الحكم ما تقول في هذا القصر العظيم، بل ماذا تقول في هذا المجلس؟».

ورفع القاضي رأسه لأول مرة وقلب النظر فيما حوله فرأى الرياش الفاخرة، والديباج والدمقس، ورأى التماثيل تزين المجلس، وشاهد سطح القُبَّبَةِ التي كانت مائلة على الصرح الممرد فإذا بها قراميد الذهب والفضة، وتأمل في هذا السقف الصفراء والبيضاء، ما بين فاقع الصفرة أو ناصع البياض، وكلها تستلب الأبصار بأشعة الأنوار، وأطال النظر والقوم ينظرون.. وقد تهلل وجه الناصر ظناً منه أن فتنة الزينة وبراعة المجلس قد طغت على القاضي ولكنه وجم حين رأى الدموع تنحدر على لحيته..

قال الراوي:

وخيم على المجلس صمت رهيب، وعلت القوم كآبة عظيمة.. حتى والله لقد صغرت الدنيا في أعين الحاضرين فما

عادوا يرونهـا إلا في دمـوع القاضي المتحدرة، وخشعت الأبصار فلم تعد ترى زينة القصر ومفاتنه بدمعة من دموع القاضي، وتهيب النـاصر حتى ليخيل للرائي أن الأرض قد مادت فابتلعته من شدة انقباضه وانكماشه على نفسه.

وانـطلق صوت القـاضي قويا متهـدجـاً من البكـاء: «يا أمير المؤمنين.. بنى أبـو جعفـر المنصـور مدينة بغداد، واستطال في البنيان، وأكثر من سفك الدماء حتى خاف الناس بطشه وغدره.. وكان للرجل ساعات يتذكر فيها الله، استدعى إليه في إحدى هذه الساعات إمامين من جلة العلماء: المحدث ابن طاووس والفقيه الإمـام مالكا، فأقبلا عليه والجلادون بين يديه.. والنطع أمامه، والسيافـون قد شهـروا السيوف وسلوها من الأغماد.. ولما استقر بهما المقام عند المنصور قال لابن طاووس: حدثني عن أبيك.

قال ابن طاووس: حدثني أبي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله فاتـح عليكم مشـارق الأرض ومغاربها وأن عمال ذلك الزمان في النار إلا من اتقى وأدى الأمانة»، فانظر يا أمير المؤمنين أين أنت، فتح الله عليك مشارق الأرض ومغاربها فاتق الله في رعيتك.

وأطرق المنصور.. وسكت ابن طاووس وخاف الإمام مالك خوفاً شديداً حتى خشي على ابن طاووس أن تأخذه غفلة السياف فقال: «فضممت ثيابي خوف أن ينالني دمه».

ثم رفع المنصور رأسه وقال: «زدني».

فقال ابن طاووس: «يقول الله تعالى: ﴿**ذرني ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا، سأرهقه صعودا**﴾. ذلك الوليد بن المغيرة يا أمير المؤمنين، آتاه الله النعمة فكفر بها، واستطال على الله، وتمادى في الطغيان، وصرف المال في غير وجهه، وكذّب محمدا وقرآنه، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى».

وأطرق المنصور.. وسكت ابن طاووس.. وذعر الإمام مالك فضم ثيابه خوف أن يناله دمه مرة أخرى..

ورفع المنصور رأسه وقال: «قوما عني»، وكبر على ابن طاووس أن تأخذه عجرفة السلطان بالمنصور فتصل إلى هذا الحد من الغلظة في الخطاب فقال في نبرة المستهزىء بالسلطان: «ذلك ما كنا نبغي»، وتغاضى عنه المنصور فقد بلغت كلمات ابن طاووس وقوارع زجره في نفس أبي جعفر مبلغاً عظيماً.. «وإنني لا أكتمك يا أمير المؤمنين نصيحة، ولا أدخر في سبيل الحق جهدا، والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، ومع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين».

وتنازع عبد الرحمن الناصر شعور الخشية لله والغضب لكرامته، وغلى الدم في عروقه حتى أخذته غاشية الغضب فقال: «انظر ما تقول وكيف أنزلني الله منازلهم!؟».

فقال منذر بن سعيد ولم يأبه لغضب الناصر واستنكاره: «نعم أليس الله تعالى يقول: ﴿**ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون، وزخرفا، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين**﴾ فما هذا السقف المذهب، والصرح الممرد وما هذه الزخارف والسرر!؟ وأي إسراف في الزينة وإمعان في الحلية هذا الذي أرى؟ أليس ذلك يا أمير المؤمنين من مداخل الشيطان إلى عباد الرحمن؟ أيرضى الله عن هذه التماثيل المنصوبة وقد نهى نبيه ورسوله ﷺ عن اتخاذ النصب والأصنام؟ يا أمير المؤمنين الدنيا غرارة خداعة، فلا تغرنك الحياة الدنيا، ولا يغرنك بالله الغرور. وأنت يا أمير المؤمنين لك من سالف جهادك في مقارعة الكفر ومغالبة الأعداء، ومنازلة الطغيان سابق فضل، وعظيم مثوبة فلا تتوج عملك بما يسخط الرحمن، ويبعدك عن طاعته».

وتأثر الخليفة بحديث القاضي فسكن، ونفذت كلماته إلى قلبه فخشع، وارتدعت نفسه فأناب، واستحالت الإنابة والخشوع إلى دموع تتساقط على وجهه خوفاً من الله، وفرقاً من عذابه. ثم أقبل على منذر بن سعيد وقال: «جزاك الله أيها القاضي عنا وعن نفسك خيرا، وعن الدين والمسلمين أجل جزائه، وأكثر من أمثالك فالذي قلت هو الحق».

قال الراوي :

وقـام الناصر من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى وانفض الناس عنه وقد علموا أن كلمة الحق عند السلطان أفضل الجهاد، وأن في صلاح الخليفة صلاح العالمين، وفي فساده فسادهم .

ورجع القاضي إلى بيته من نفس الطريق الذي قدم منه . .

وتعجب الناس أن يرجع القاضي سالماً لم يزج به في أعماق السجون، ولم ينله أي سوء وقد كان منه ما كان . .

وأقبلوا عليه يتساءلون .

وقـال القـائـل منهم : «لـولا رحمـة الله بك لأخـذتك سطوة الناصر . . إننا لنعجب أن رأيناك مرة أخرى» .

وابتسم القاضي وقال : «يا بني ألم أقل لك إن سطوة الله أكبر من سطوة أمير المؤمنين» .

وما كاد القاضي يدخل بيته ويستقر فيه حتى أقبل رجل كان في مجلس الخليفـة مسرعا . . واستقبله القاضي قائلا : «ما وراءك يا رجل أغيَّر الناصر رأيه؟ أعزم على قتلي؟ أنا لا أبالي» .

وقـال الـرجل : «لا يا سيدي إني أزف إليك بشرى : لقد أمر النـاصـر بنقض سقف القبـة، واستبـدال قراميد الـذهب والفضة

بقراميد الآجر والتراب، وأمر بهدم جميع التماثيل في مجلس الذهب. . ».

وسرَّ القاضي وقال: «الحمد لله ذلك فضل الله».

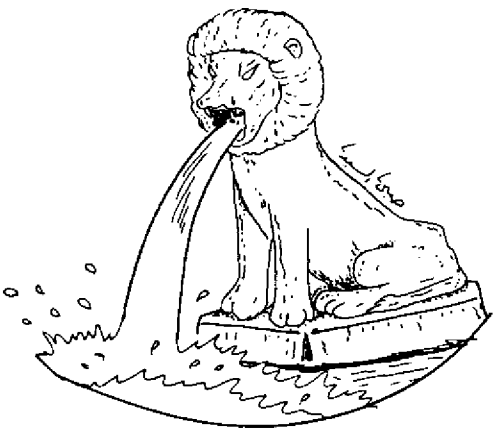

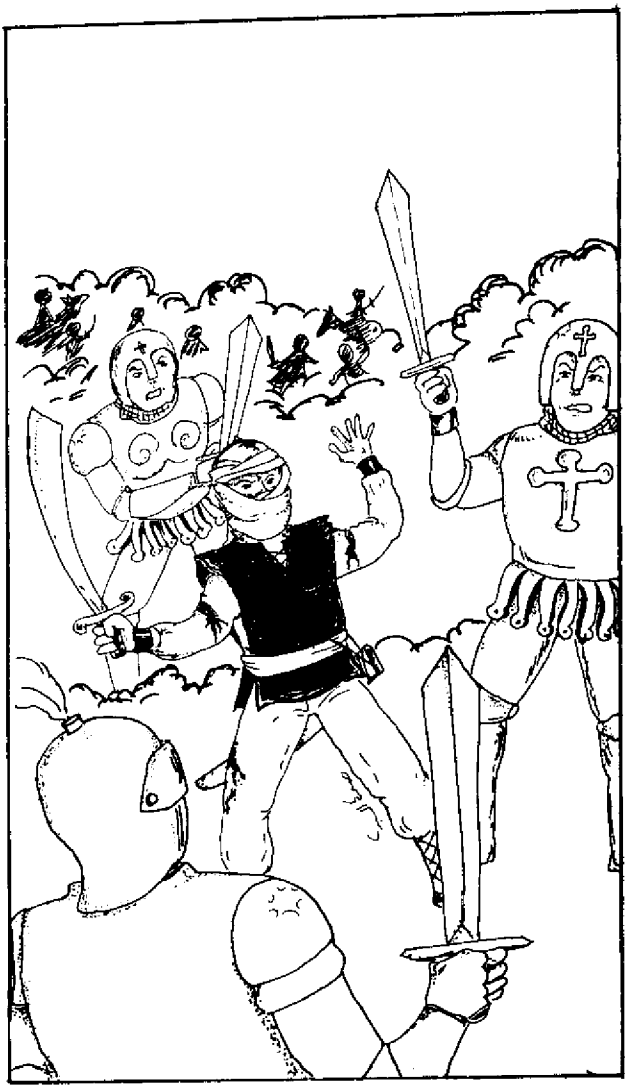

نصر الشهيد

- ١ -

وجلس أفراد الجيش الإسلامي حلقا حلقا.. وانتشروا على صفحة سهل حطين.. بينما قام نفر من الحرس على مشارف الجبل وأطراف الوادي يرقبون حركات الصليبيين..

وكانت حلقة السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب قد اتخذت مكانها بجانب خيمته الكبيرة في وسط الخيام وأخذ السلطان يتدارس خطة الحرب وأخبار الوقائع مع أصحابه وقال قائل: «بلغني أن رانود[1] صاحب الكرك هو الذي حرَّض الصليبيين على القتال، وجمع جموعهم، وقوّى عزائمهم بعد أن وصل خبر فتح طبرية إليهم».

فأجاب السلطان: «هذا صاحب الكرك.. إن لي معه شأنا.. أتذكرون يوم أقسمت لئن ظفرت به لأقتلنه لأنه قطع على الحجاج طريقهم، ومثّل بهم بعد أن نهب أموالهم.. وأكرر القسم لديكم.. والله لئن أظفرني الله به لآخذنه بالسيف».

---

(١) وتذكره الكتب العربية باسم البرنس أرناط صاحب الكرك.

فقال قائل: «لتظفرن به إن شاء الله وما ذلك على الله ببعيد».

وكان في الحلقة عماد الدين الكاتب الأصفهاني فقال السلطان: «لقد أظفرك الله بطبرية ففتحتها، وقهرت جند الطاغوت فيها وليظفرنك الله بالقدس، وغداً سيكون النصر معك يا مولاي ألا ترى إلى هذه الجنود.. إنهم جنود الحق وأبطال الإسلام، بهم انتصرت في واقعة صفورية، وبهم فتحت طبرية وبهم ستنتصر في حطين، وبهم ستفتح القدس.. ولقد أوقع الله الرعب في قلوب أعدائك، فها هو «رايموند» يقول لأمرائهم: «إني أتنازل عن مدينة طبرية، للعدو لتتجمع حول القدس، وندفع سيول صلاح الدين الدفاقة من جنوده، فما رأيت قط جيشاً كجيشه قوة وبطشا»، وها هو أرناط يرد عليه ويقول: «أتخوفنا من المسلمين!؟ أبلغ بك الضعف إلى هذا الحد!؟ أما علمت أننا النار وهم الحطب..»، ويمضون يا مولاي في جموع زاخرة ليلقوك غدا في حطين.. ولكنهم كالأنعام بل هم أضل، ولتجدنهم في الملحمة إن شاء الله ضعافا عجافا..».

فقال السلطان: «لقد احتطنا للأمر، وأعددنا العدة، ونزلنا على الماء ومنعناه عنهم، ووكلنا الأمر لله، فإما نصر وإما شهادة.. إما فتح وإما خذلان. والله يعلم أن جنود الإسلام هؤلاء ما اجتمعوا إلا لإعلاء كلمته، وإحقاق الحق، ورد البغي، وطرد العدو، وما أظن ربي يخذلني..».

ثم استقبل السماء، ورفع يديه بالدعاء: «اللهم نصرك» واغرورقت عيناه بالدموع وصمت الجمع وأطرقوا..

وانبعث صوت يحي بالسلام.. وترجل فارس، وتقدم من السلطان ثم قال: «يا مولاي، حجزنا الساعة شابا يزعم أنه من مماليكك قدم من دمشق ويقول إن اسمه نصر».

فقال السلطان بعد سكوت قليل: «فأل حسن إنه نصر على الأعداء، دعوه يأتي»، وغادر الفارس المكان، ثم عاد بعد قليل ومعه شاب وسيم، ما إن رأى السلطان حتى تهالك على يديه يقبلها ويقول: «يا مولاي.. عفوك.. عصيتك وأقبلت شوقا إلى القتال». وقال السلطان: «مرحبا بك.. ولكن كيف تركت أمك؟».

ـ «إنها في حرمك يا مولاي آمنة مطمئنة.. وما جئت حتى استأذنتها فأذنت بعد إلحاح..»، وشيعتني بدعائها وقالت لي: «لا تباشر القتال حتى يأذن لك السلطان»، وها أنا بين يديك يا مولاي أرجو أن تشبع رغبتي في جهاد الأعداء لعل الله أن يحقق امنيتي في الشهادة».

ـ «أواثق أنت من قدرتك على القتال وصمودك أمام الأبطال».

وأجاب الفتى نصر في عزم وثبات: «إن من كان ربه الله، ونبيه محمدا، وإمامه السلطان، فلن يعجز عن قتال الدنيا بأسرها في سبيل الإسلام».

فاستبشر السلطان وقال: «اجلس يا نصر فغداً تجوز الامتحان..».

- ٢ -

وكان صباح الجمعة ٢٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ ووقف السلطان صلاح الدين يرتب العسكر ويعبئهم تعبئة عسكرية (فرتب لكل أمير أمراً، ولكل مقدم مقاماً، ولكل موفق موقفاً، ولكل كمين مكاناً،وأخرج الجاليشية الكماة الرماة، ووصى كل حزب بما يقربه من حزب، وقال: «إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا»، ثم خطب فألهب المشاعر، ورغب في القتال وشدد من العزائم، وحث على الاستشهاد[1]).

ووقف جيش الغرب الأوروبي مواجها لجيش المسلمين.. وتبارز الشجعان ساعة من الزمان..

ثم التحم الجيشان.. وكلٌ قوي العزيمة، صادق الحملة، فلم يتزحزح جيش عن موضعه، وألقى الظلام سريعا ظلاله، ووقف العسكران لا يريمان، كل شاكي السلاح ينتظر صبيحة السبت، فلم تدفن القتلى، ولم يسعف الجرحى، إلا بقدر ما يسمح الحذر لنفسه في غفلة الرقباء.

---

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي لأبي عبدالله عماد الدين الأصفهاني.

- ٣ -

وأقبلت في الليل نجدات الأوروبيين من القدس وعكا . . فاستبشروا وأيقنوا بالنصر . . وأصاب المسلمين غم كبير . . تسرب الضعف منه قليلا إلى نفوسهم ، فمضوا إلى القتال صبيحة السبت وهم أقل حماسا من أمسهم . .

ودنا الجيشان . . كلاهما عطش إلى الدماء صابر على القتال ، ولكن انقطاع الماء عن الصليبيين ألهب فيهم الحماس وقوى منهم العزائم فحملوا على المسلمين حملة قوية يريدون بها أن يخترقوا صفوفهم لعلهم يصلون إلى الماء . . وارتفع من وسطهم صليب الصلوات ، فعلا الضجيج واشتد الضغط على المسلمين .

وأدرك الحرج المسلمين ، ولحقت بهم ساعة من ساعات العسرة .

وحاول صلاح الدين أن يرد الجموع المتدفعة ولكنه لقي عنتاً شديداً .

وتطلع المسلمون إلى السماء يطلبون المدد من رب السماء .

ونظروا فإذا صبي قد خرج من بين الصفوف فشقها ، وأعمل السيف فإذا رؤوس الأعداء تتطاير ، وأشلاؤهم تتناثر ، وإذا حسامه اللماع يندفع أبيض فيصدر بالدم الأحمر القاني .

وأخذ الفتى ينتقل من مكان إلى مكان ، والنصر رائده ،

والموت في ظبية سيفه، فخافته الجموع، وتنكبت طريقه الكتائب.

وقال صلاح الدين ـ وقعقعة السيوف، وجلجلة الرماح، وزفيف السهام، يملأ الأجواء ويصم الآذان ـ «يا أبا عبدالله، ما أظن هذا الفتى إلا نصراً».

فقال أبو عبدالله عماد الدين الأصفهاني: «ما أظنه إلا هو يا مولاي».

فقال السلطان: «إحمل جهته لعلنا نكون له درعا».

وحث السلطان الجنود، واندفع أشد ما يكون الاندفاع يفرق الكتائب، ويشتت الصفوف وأبو عبدالله الأصفهاني بجانبه والمسلمون من ورائهما.

ولكن عين القائد المندفع أبصرت المقدمة على اليمين قد فتحت طريقا للجيوش التي يقودها رايموند فهاله أن ينهزم ابن أخيه تقي الدين عمر ولكنه ما لبث أن رأى الدخان يتصاعد في الأجواء.. فأدرك أنها خدعة حرب، وأدرك أن جيوش رايموند قد انفلتت من لهيب الحراب إلى لهيب النار، ومن حرارة الطقس إلى حرارة اللهيب، وهربت من حرب الجو المغبر إلى جو الدخان الخانق.. فاستبشر واستأنف القتال.

وعجب المسلمون من هذا الفتى الملثم، وظنوه ملاكاً من

جنـود الـرحمن، وعـدوه آية النصر في ساعة العسرة، واندفعوا لا يلوون على شيء وقد تحققوا من الفوز، وأيقنوا بالنصر.

وهال الصليبيون أن يهزمهم شاب بمفرده فأقبلت صناديدهم من أقصى الميدان لتصـل إليه، وانحدروا إليه من كل صوب وقد تميزوا من الغيظ، وأخـذتهم حمية الكفـر، فابتـدرهم بسيفـه، واستقبلهم بقلب ثابت، وجنان مطمئن، واصطرع معهم واصطرعوا معه. . ولكنهم تكاثروا عليه فخر صريعاً وقد اعتوروه بالسيوف من كل جانب، بعـد أن ألقى الـرعب في قلوب الصليبيين، وبعث الإيمـان الصـادق في قلوب المسلمين، وضمن النصـر لجيوش صلاح الدين.

وانهزم الصليبيون واعتصموا بجبل حطين. . ولحقتهم عساكر المسلمين من كل صنـديد شاكي السلاح، وأسفرت المعركة بعد تتبـع ومطاردة عنيفتين عن فوز المسلمين وأسر كثيرين من الجنود والأمراء الصليبيين.

- ٤ -

وقام الجنود في الليل يدفنون القتلى من المسلمين، ويبحثون عن الجرحى. .

وأوصى صلاح الدين بإحضار جثة الشهيد نصر فلم يستطيعوا أن يتعرفوا عليها فقام هو بنفسه يبحث عنها حتى عثر عليها وحملها

الجند إلى الخيام.

واصطف الجند بالليل وصلى السلطان على الشهيد صلاة الجنازة ودفن نصر في احتفال مهيب. . وأبنه السلطان فقال: «يرحمك الله يا نصر لقد جزت الامتحان».

قالها في حزن وألم والدموع تطفر من عينيه. .

لقد بكى السلطان على فتى دفعته الرغبة في الجهاد إلى الاستشهاد.

جمال وقبح

أخلاقنا وأخلاقهم.. سمو إلى السماء، وانحطاط إلى الحضيض علوٌّ بالروح، وهَوِيٌّ إلى الأدنى، جمال في الشرق؛ وقبح في الغرب..

فليفقه دعاة الغرب وأنصاره من شباب العرب وليعلمْوا أن الخير كل الخير هذا الشرق المنكوب..

وليزدد دعاة الإسلام، وأنصار الروح إيمانا وعقيدة وليمضوا في سبيلهم قدما فالحياة للعاملين، والبقاء للأصلح.

- ١ -

وأخذت جيوش «إيزابلا» و«فرديناند» تكتسح الأندلس، وتدك معالم العرب، وتُجلي المسلمين عن هذه الجزيرة المسلمة.. وأخذ العرب يفرون بدينهم إلى حيث يجدون لكلمة الله دوياً في الآفاق، كما كان لها دوي في القلوب بعد أن بذلوا من أنفسهم ودمائهم ما لم يغن عنهم شيئا.

وتكونت في إسبانيا محاكم التفتيش، وانتصبت مقاصل الإعدام، وانتشرت آلات التعذيب، وتجمعت رذائل أوروبا لترغم

المسلم على أن يتخلى عن دينه، وأقبلت كلمة الكفر الوحشية لتعذب كلمة الإيمان المهذبة. . ووقفت همجية الغرب في إحدى حجر التعذيب، تبتسم لوداعة الإسلام ينفر منها الدم، وتهزأ بقوة العقيدة تصمد لتعذيب إيزابلا وفرديناند.

وصاحت إيزابلا بصوت منكر: «ويحك أيها الكافر ألا تستمع لقولي».

وأجابها الغلام المؤمن وهو يبتسم ـ ابتسامة بلال حين وضعوا الصخر على صدره في لفح الهجير ـ : ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه**﴾.

وانتفضت إيزابلا وهي تصرخ: «شدوا يديه حتى يقول كلمة الإيمان».

وهرع إليه رجال أشداء جذبوا يديه إلى إحدى آلات التعذيب وضموا رجليه إلى أخرى، وشدوا ما بينهما، فتفرقعت مفاصله وتمددت عروقه؛ وظللت سحابة الألم محياه الوسيم.

وابتسمت إيزابلا وابتسم فرديناند، وابتسم الكاردينال رئيس محكمة التفتيش وصاح بالفتى: «أكفر بمحمد تنج من التعذيب. . إن ما ينتظرك من العذاب أضعاف ما ترى. إرجع عن دينك لتصبح إنسانا من رعايا الرب».

فرنَّ في جنبات الحجرة قول الفتى المعذب: «محمد رسول الله».

وعادت صرخة إيزابلا تقول: «ويحكم يا رجال، شددوا العذاب».

وتنافر الدم من ابطي الفتى المؤمن، وتصبب العرق من جسمه المجـذوب، وبرزت عروقه وأوداجه، وكادت جلدة جسمه تتقطع من شدة التعذيب..

ورنت ضحكات المجرمين في أرجاء الحجرة..

وصاح الكاردينال في نشوة الظافر.. ولكن برذيلة الدنيا: «ناد محمدا ينقذك من العذاب».

وانفرجت شفتا المؤمن عن همس يتألم: «إن وليّي الله الذي أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين»، وأطرقت إيزابلا تسمع لهمساته ولكنها لم تسمع شيئا، وظنت أن العذاب قد أثّر في الفتى فقالت: «ماذا يقول؟ خففوا عنه العذاب لنسمع كلمة الإيمان».

فخففوا الضغط عن جسمه المنهوك، واقتربت إيزابلا منه وهي تقول: «أشفق على جمالك أيها الفتى. إرأف بنفسك وتمتع بنعيم الحياة.. دعك من ضلال الكذابين واتبع طريق الهداية والرشاد».

وتلوى الفتى ألماً وأخذت ذؤابتاه ترعد لدعوة الكفر، وترتجف لفـظاعـة القـول وهتف: «ومـا لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا

سبلنا، ولنصبرن على ما آذيتمونا، وعلى الله فليتوكل المتوكلون».

- «عذبوه إذن عذبوه.. صبوا الأقذار والماء الحار في فم هذا الكافر».

واحترق فم الفتى والتهبت أحشاؤه، وانتفخت بطنه، وانسلخت جلدته حين صبوا الصديد الحار في فمه، وسكبوا على جسمه مواد الحرق والتعذيب..

وأثّر التعذيب في العود اللدن، ونجعت التجربة في الجسم الغض، الذي لم يألف من الحياة إلا طيب العيش، ولين السرير فأشار إليهم أن قد آمنت بالثالوث وكفرت بمحمد.

فرفعوا عنه العذاب وأسعفوه بالأدوية والبلسم..

والتفتت إيزابلا إلى فرديناند الذي كان «ينعم» بمنظر الألم وقالت: «إنه فتى جميل يصلح أن يكون في خدمتنا».

وانتفض جسم الفتى المرهق.. وعاد إيمانه الكامل إليه، وطغت قوة العقيدة على ضعف الكفر وصرخ بما لديه من قوة: «لا لا. لن أكفر بمحمد ولا برب محمد افعلوا بي ما شئتم فلن أكون عبد الطغاة، إن الموت مع دين محمد خير من العيش في كنف النساء».

ولم يكد يتم كلمته حتى اخترق سيف فرديناند صدر الفتى

الشهيد على كلمة الله .

- ٢ -

وها هي أوروبا المتعصبة من شرقها إلى غربها تلتقي في الشام لتقضي على كلمة الإيمان المنيرة في المسجد الأقصى . .

ها هو الغرب، نساؤه قبل رجاله، وأطفاله قبل شبابه يهرعون من كل صوب، وينسلون من كل قطر إلى أرض الحرم ليقدموا للتاريخ برهانا صادقا على مجد الإسلام، ودليلا ناصعاً على رحمة المسلمين، ومثلا جديداً على نفاذ الدعوة الإسلامية بالحسنى قبل الشدة وباللين قبل السيف . .

وها هو جيش صلاح الدين الأيوبي يرد هذه الجموع الزاخرة حاسرة الطرف، ذليلة الجانب في معركة حطين .

* * *

في ليلة المعركة الفاصلة مرقت بين خيام الفرنجة امرأة تولول غير آبهة لحراس ولا لجند وولت شطرها نحو خيام المسلمين فأمسك بها ديدبان المسلمين، وسألها عن وجهتها فصرخت في وجهه: «أريد صلاح الدين . . أريد صلاح الدين» .

فقادوها إليه . . كان نائماً فأيقظوه ليسمع شكاية امرأة عدوّة . .

وكان كثير من كبار الجيش الإسلامي نائمين فأيقظهم صلاح الدين . .

وقال للمرأة في رقة وحنو: «ما خطبك أيتها المرأة؟» .

فبكت ثم صاحت: «جنودك هؤلاء أيها القائد» .

فاربد وجه صلاح الدين وقال: «وما فعل جنودي؟» .

قالت: «بالأمس أسرتم زوجي لويس فقلت في سبيل الرب، والليلة هذه ـ قبل ساعات قلائل ـ سرق لصوص من جندك طفلي الحبيب. . طفلي الذي تعزيت بوجوده عن فقد أبيه . . أريده منك فأنت المسؤول عن أعمال جندك . . أريد طفلي منكم أيها الكفار . . أريد طفلي» .

فهدّأ صلاح الدين من روعها وأنفذ الجند يبحثون في معسكر الجيش، وفي ضواحي المعسكر عن طفلها المخطوف .

وعاد الجند بلصوص غرباء قد سرقوا الطفل فوثبت المرأة إلى طفلها تضمه إلى صدرها وتلثم وجهه والدموع تطفر من عينيها على وجنتيه . .

ثم أقبلت على السلطان تشكره بعد أن ذهب عنها الروع فاستمهلها ثم بعث وراء الأسرى ووهب لها زوجها وقال: «اذهبوا إلى أمرائكم فقولوا لهم: بأننا قوم لم نكن لنظلم ولكننا نرحم، لم

نخلق للحرب والتدمير. . ولكن خلقنا للسلام والتعمير، ديننا يجمع بين الأحباب، ويؤلف بين القلوب لا يفرق بين الإخوة، ولا يبذر بينهم البغضاء. . قولوا لرؤسائكم: بمثل هذا الخلق سيكتبُ لنا النصر».

وهمَّ بأن يقوم لولا أن انطلق لويس وهيلانة يهتفان: «إن عندكم الرحمة والعدل، وعندنا القسوة والظلم فهل تقبلونا في جنود الرحمة والعدل؟».

فقال صلاح الدين: «قولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله وآمنوا بها من قلوبكم».

فصاحا: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

. . وانطلقا إلى خيمتهم في معسكر المسلمين وهما يرددان الشهادة، والمسلمون يرددون التكبير.

- ٣ -

في سنة ١٩٢١ م تكشفت الحقيقة المروِّعة لعرب فلسطين عن نوايا سيئة من جانب الإنجليز، فقد أعلنوا ما كان بينهم وبين الصهيونيين من اتفاق على منح فلسطين هبة سخية لشذاذ الآفاق. .

ونزلت في ميناء «يافا» العربية في ذلك العام نفسه طلائع

المهـاجـرين من الأفـاقين، وتنبـه العرب بادىء ذي بدء إلى هذا الخطر الداهم فقاموا بمحاولة بدائية للثورة على الظلم وهبت فئة من الشبـاب العـربي المتدرب في الجيش التركي تعتصم ببعض القـرى وتهـاجم قوافـل الجنود الإنجليز الذين كانوا لا يزالون في فلسـطين فهـاجموهم ليلعنوا احتجاجهم الصارخ على وعد بلفور ولكن العرب في فلسطين وغير فلسطين كانوا لا يزالون سادرين، ففشلت الثورة في مدى أيام ولكنها خلفت هذه الصورة الدامية:

أطلق القـائـد أول رصـاصـة من بنـدقيتـه إنـذاراً لإخـوانـه المجـاهـدين ببدء الهجوم على القافلة الإنجليزية المارة بالطريق العـام وتتـابعت الطلقات، وخرَّ بعض الجنود الإنجليز صرعى.. وتلفت زملاؤهم ليروا هذا الحدث المفاجىء، وما أن تبين لهم أن كميناً من ثوار العرب قد هاجمهم حتى ثارت ثائرتهم، وانطلقوا إلى مدافع الميدان يصبون حممها على رؤوس المجاهدين.

واستمرت المعركة ساعة أو أقل، كنت لا تسمع فيها إلا دوي المـدافع وأنين الجرحى. وانجلت عن أربعين جريحا من العرب المجاهدين حملهم الجنود الإنجليز في سخط وازدراء وألقوا بهم في عنف وشدة على أرض السيارات، بعضهم فوق بعض، والدماء تنـزف من جراحهم، والألم يعصـر أكبـادهم، ثم أخذوا يحققون معهم على قارعـة الـطريق وهم أحـوج ما يكـونون إلى الإسعاف وتضميد الجراح.

قال قائلهم: «مـا الـذي دعـاكم إلى انتهـاك حرمـات الأمن والاعتداء على جند جلالة ملك إنجلترا وامبراطور الهند؟».

وانتزع قائد الجرحى من بين شفتيه كلمات: «إنكم أردتم أن تهبـوا بلادنـا لليهـود متناسين العهود التي قطعتموها على أنفسكم فقمنا نشعركم بأننا أصحاب الأرض لا يتصرف في أرضنا إلا على حسب أهوائنا وآرائنا».

وقهقـه السـائـل وصاح في جنوده: «خذوا هؤلاء الأوغاد إلى أقرب مستعمرة يهودية وسلموهم لليهود يفعلون بهم ما يشاؤون».

وأطاع الجند أمر قائدهم، وأخذوهم وهم ما بين محتضر يودع ذنياه، ومتـألم يئن من جراحـه وأسلمـوهم إلى أيدي اليهـود في مستعمـرة «ملبِّس» تهـوي عصيتهم على رؤوس الجرحى وهم لا يملكون دفعا، ويستقبلون حجارة أولئك الجبناء وهم لا يستطيعون رداً.

عصى تهوي وحجارة تقذف على جرحى ضعفاء أنهكهم نزف الـدمـاء وغيبهم خميس الألم ماذا يكون مصيرهم؟ لقد ماتوا ميتة الشرف ولفظوا آخر أنفاسهم تحت أقدام اليهود، تطأهم وطأ شديداً لتقضي على الدماء من أنفاسهم.

وقهقـه الكون على شهيق المحتضرين.. وسمعوا آخر لفظة

يلفظها جريح: «اللهم فاشهد لا إله إلا أنت محمد نبيك ورسولك».

- ٤ -

وفي سنة ١٩٢٦ م هبت فلسطين العربية تنافح عن عروبتها من لوثة الصهيونيين وتطالب بحقها من أيدي المستعمرين، وأشهرت السلاح قويا فاتكا ووقفت كالطود تمر بها الأعاصير وهي لا تبالي، وقذفتها إنجلترا بجموع حاشدة من جيوشها، ومتطوعي اليهود، ولكن العرب ظلوا صابرين..

في تلك الفترة قامت مدينة الخليل، شيبا وشبانا، واتخذت وجهتها حارة اليهود لتأخذ بثأرها من هذه الشرذمة من الدساسين الذين نسوا حق الجوار، ولم يراعوا عهد العدالة الذي رأوه في ظل العرب أيام كانوا سادة يحكمون.. فأبدوا العداوة للمسلمين، وعملوا على الكيد بهم، والاتصال بمنظمات الصهيونيين المعادية للعرب..

وذعر اليهود وأخذهم المسلمون من كل جانب، وفتكوا بهم فتكا ذريعا، ولم يُبقوا إلا على الشيخ أو الطفل أو المرأة، فسقط شبابهم صرعى إلا نفراً قليلا ساعدتهم بساطة جراحهم على أن يلتجئوا إلى دار من دور المسلمين.

دخلوها هاربين فاختبأت منهم نسوة الدار، وخرج إليهم كهل

قد جاوز الستين ما إن رأوه حتى تهالكوا على قدميه يستغيثون: «أجرنا من قومك إن بك عائذون».

ونظر الشيخ فرأى الدم ينزف من جروحهم. وسمع الضجة الصاخبة بباب داره فأيقن أنه إن تركهم فإنهم هالكون. فأجارهم وأدخلهم إلى بيت يخفيهم فيه عن الأنظار ثم استقبل الجموع المتدفقة وأشار إلى باب آخر وقال: «من هنا قد خرجوا» فاندفعوا في الجهة التي أشار إليها، ونفذوا منها إلى الشارع مرة أخرى.

ومرت عليهم الحيلة وخلفوا جرحى اليهود آمنين في بيت الشيخ الكريم..

وعاد الشيخ إلى الجرحى اليهود فوجدهم في حاجة ماسة إلى طبيب. فأنفذ وراء الطبيب الذي ضمد جراحهم، وطمن نفوسهم ـ بعد أن فهم موقف الشيخ ـ وظل يتردد على البيت ثلاثة أيام حتى اندملت منهم الجراح.

وكان الشيخ كريما ـ عادة العربي في الكرم ـ وفياً ـ خلق المسلم في الوفاء. آواهم وهم أعداؤه، وأنقذهم ولو كان هو في موقفهم لذبحوه، وأجارهم ولو استجار بهم لأسلموه، فقبلهم ضيوفا ثلاثة أيام ثم انسلوا في اليوم الرابع مستخفين عن الأنظار والشيخ يرقبهم ويتلو: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعقلون**﴾.

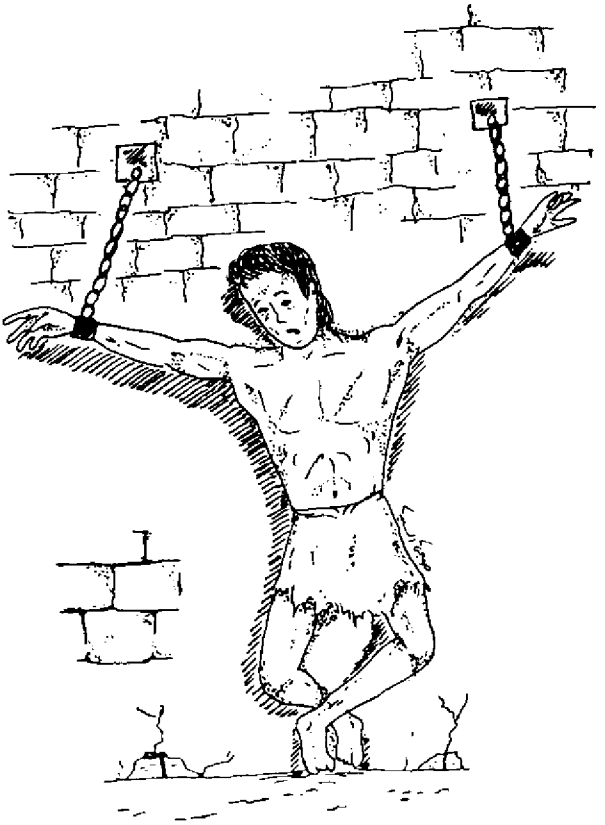

مُبَايعَة عَلى الجِهَاد

- ١ -

ودلف الرجل إلى مجلس الشيخ في أسماله القروية، وهيئته الريفية بعد أن أدى لله ركعات وجلس في الحلقة يستمع إلى كلمات الشيخ يتدفق في الوعظ ويفيض في التفسير، ويشدد التقريع، في ذلاقة لسان، وطلاقة وجه، وبراعة سرد.

قال الشيخ: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون**﴾، ذلكم المنافقون كانوا على عهد النبي ﷺ يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، ويلقون المؤمن بوجه، ويلقون يهود المدينة بوجه آخر يزعمون لهؤلاء وهؤلاء أنهم معهم، فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر، ويعلم الله تبارك وتعالى أنهم ليسوا بالمؤمنين، وإذا لقوا الذين كفروا قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون يظنون أنهم يخدعون النبي صلوات الله عليه والمؤمنين، ولكن الله عز وجل قد كشف خفاياهم، وهتك أستارهم، ومع ذلك فقد تمادوا في

الـطغيان واستمـروا في العـدوان فآذوا النبي وصحبـه، وألّبوا يهود المدينة عليه، واتفقوا الاتفاقات السرية مع كفار قريش حتى ضاق بهم النبي ذرعـا، فأذن الله له في جهـادهم ﴿**يـا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير**﴾.

«والمنافقون في كل مكان وزمان وهم في زمننا اليوم أكثر منهم في أي زمن مضى، هم الـذين يوالـون أعـداء الله، ويوادون من حارب الله، ويتقـربـون إلى هؤلاء الـواغلين على أرض العـروبة المتطفلين على بلاد الإسلام، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هؤلاء الذين يزعمون أنهم منكم من نسـل عدنـان وقحـطان، وعلى دينكم دين الإسـلام، بينمـا تجـدونهم في حانـات اليهـود وملاهيهم، يعقدون الصفقات لبيع الأرض المقدسة بثمن بخس ثم لا يلبثون أن يبددوا هذا المال على سواقط النسـوة، وقـطرات الخمـر فتـذهب إلى جيوب اليهـود مرة أخـرى.. هؤلاء هم المنـافقـون.. يبيعـون وطنهم ولا يدرون، ويخرجون عن دينهم ولا يشعرون».

وأخـذ الـرجـل القـروي بحـديث الشيخ وتلجلج في صدره سؤال، ولكنـه تردد في إلقائه، وبدا التردد على وجهه حتى لمحه الشيخ فقال له: «لا تخجل سل ما تريد».

فأجاب القروي: «إنه سؤال خطر لي، وأخشى أن لا يعجبك».

- «قل ولا تخف. . السؤال نصف العلم».

فسأل الرجل: «أنا أفهم أن الزنا حرام، وأن الخمر حرام، وأن الملاهي حرام. ولكن كيف يكون بيع الأرض حراما. . والأرض ملك البائع يتصرف فيها كيف يشاء؟!».

وتذمر بعض الجالسين في حلقة الشيخ، وانبرى يقول: «ماذا تقول ألا يكون بيع الأرض لليهود حراما. . أين أنت؟ وكيف تفكر حتى تقول هذا القول؟».

وقال القروي في حدة: «أفكر كأحسن ما يفكر فيه الناس متى كان تصرف المالك في ملكه حراما!؟».

وحدثت المشادة بين الرجلين، وعلا صوتاهما، ولكن الشيخ أسكتهما وانطلق يقول للقروي:

«كان لا بد من سؤالك يا أخي، ليست المسألة تصرف مالك في ملكه فحسب. . فهذا لا نزاع في أنه حر التصرف فيه ولكنك تعلم أن اليهود أعداء الله منذ القدم، وأعداء النبي عليه السلام منذ فجر التاريخ الإسلامي. وإنهم اليوم قد جاؤوك على حراب الإنجليز وبنادقهم، ليطردوك من بلادك، ويقيموا لهم دولة في وطنك. . زعموا أول الأمر أنهم يريدون فلسطين وطنا روحيا، ثم إذا بهم يتدفقون من كل جهة، وإذا بهم يقولون: «نريد فلسطين وطنا قوميا إنها أرض أجدادنا أرض إسرائيل»، ومعنى ذلك يا أخي أن

تترك بيتك وأرضك لليهودي، ثم ترحل إلى بلد لا تجد فيه إلا اللعنة عليك لأنك فرطت في وطنك ودينك وإن من أهم ما يساعد اليهود ومؤازريهم على ذلك أمرين:

أولهما: سكوتك على الظلم وقعودك عن الجهاد.

وثانيهما: بيعك أرضك لليهودي لتصبح بلا أرض فتصبح بلا وطن.. ومن العبث أن تقول أن أرضك ملكك تتصرف فيها كما تشاء فإنك تجلب بذلك الضرر على أبناء وطنك الآخرين فمثلك كمثل رجال في سفينة اقتسموها فخرق قوم خرقا في القسم الذي يخصهم فسكت الآخرون عنهم فدخلت المياه إلى السفينة فغرقت وهلكوا جميعا».

وتهللت أسارير القروي، وأشرقت قسمات وجهه واندفع يسأل الشيخ في حرارة المؤمن الذي بان له الحق: «لِمَ لا نجاهد المنافقين إذن يا سيدنا؟!».

وقال الشيخ: «قتال المنافقين فرض كقتال الأعداء، ونحن يجب أن نقاتل هؤلاء وهؤلاء، ولكن أفلا تسمع قول الله: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾، فنحن يا أخي قوم ضعاف لا نملك سلاحاً ولا عتاداً فكيف نقدر على مقاتلة الأعداء».

وقـاطعـه القروي قائلا: «إن معنا الإيمان يا سيدي والإيمان يفعل كل شيء» وقال الشيخ: «إن ما تقوله لحق فلننتظر حتى يعمل الإيمان كل شيء..!».

وسكت القروي لتهكم الشيخ..

وأنهى الشيخ درسه، ثم قام فأمسك بيد القروي وهمس في أذنه: «تعال معي يا رجل».

وانطلق الرجل مع الشيخ إلى حجرته في مؤخرة المسجد.. وهناك مع نفر قليل من الرجال قال الشيخ في نبرة القوة والأمل: «إن معنا الإيمان يا رجل، والإيمان يبعث فينا الصبر، والصبر يجعل فينا القـوة، والقـوة تقهـر الأعـداء. قال تعالى: ﴿**يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتـال إن يكن منكم عشـرون صابـرون يغلبـوا مائتين، وإن يكن منكم مائـة صابـرة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون**﴾، ويقول: ﴿**الآن خفف الله عنكم وعلم أنَّ فيكم ضعفـا، فإن يكن منكم مائة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين**﴾. ألم تسمع ما قاله الله في بني إسـرائيل: ﴿**ولمـا برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربنا أفـرغ علينـا صبـرا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله**﴾.

فالصبر يا رجل، عماد الإيمان وعماد القوة، فلا تظنن أنني قد

بثت فيك اليأس في أثناء الدرس، وإنما أردت أن أبعد عني شبهة التحريض على القتال. . ولكن ما رأيك في أن نتناجى حديث الإيمان والبر والتقوى كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وتناجوا بالبر والتقوى، واتقوا الله الذي إليه تحشرون**﴾، فنبحث حالتنا وما يجب علينا أن نفعله تجاه هذه الفئات التي تريد القضاء على وطننا وأرضنا وبلادنا. . وأنت رجل قد توسمت فيك الخير، ورأيت على جبينك النور نور الجهاد».

ونظر الشيخ إلى الرجل نظرة الثقة والأمل، ونظر الرجل في عيني الشيخ فلمح فيهما بريقا يوحي بالإخلاص والعزم والقوة وشعر بأن الشيخ رجل يتكلم بلسان ملك. . وأخذته هزة الإيمان وسرت في جسمه قشعريرة التقوى، وأطرق برأسه إلى الأرض يفكر ماذا يفعل. وجللت جبينه سحابة التفكير. . وراقبه الشيخ حتى أشرقت أسارير وجهه وقال: «الثورة يا سيدي هي التي تحق الحق، وتردع الظالم، وتوقف الهجرة».

وأيقن الشيخ أنه قد وصل إلى ما يريد من الرجل، فلقد وقعت يده على رجل مندفع في إيمانه لا ينقصه إلا التوجيه، فالتفت إليه وقال: «الثورة. . أجل الثورة. . ولكن الثورة لا بد لها من إمداد، إمداد المال، وإمداد الرجال. أما المال فقد وضعت وصحبي جميع ما نملك لشراء السلاح من البارود، وإعداد العدة من القوة.

أما الرجال فإنا لنرجو أن يزيد عددنا بك واحدا وأن تمدنا بالرجال ممن تثق فيهم، وتتوسم فيهم روح التضحية والجهاد. .

فقال الرجل: «أنا معكم من الآن يا سيدي جندياً من جنود الله، واشهدوا يا إخواني بأنني أضع كل ما أملكه تحت تصرف الشيخ في وجوه الاستعداد».

- «بايع الشيخ إذن. . ».

- «مد يدك يا سيدي وهاتوا المصحف الشريف لأقسم عليه».

وقال الشيخ: «قل كما أقول».

فرد القروي: «بل أقول كما أريد: قسما بالله العظيم لأبذلن دمي ومالي في سبيل وطني وبلادي، وإني أبايع هذا الشيخ وأتعاون معه في هذا الشأن والله على ما أقول شهيد».

واجتمع الشيخ والرجال وبايعوا رفيقهم الجديد. . اللبنة الخامسة في هذه الجماعة السرية.

انصرف الرجل القروي رجلا غير ما كان: إنه يشعر بجسامة المسؤولية، وضخامة العبء. . إنه جهاد في سبيل الله والوطن.

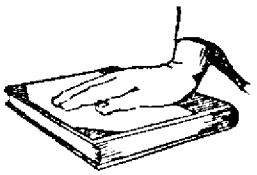

جراح الجنرال وايفل

- ٢ -

وأصبح القروي يتردد على الشيخ كلما سنحت له الفرصة، يستمد القوة من معانيه، ويستلهم التوجيهات من روحه، ويقوي العزيمة من إيمانه، ويرسم مع الشيخ وزملائه خطة البدء في الجهاد.

ومضت الأيام.. والجماعة تنمو حتى بلغ عددها سبعة عشر نفراً كلهم مخلص لوطنه متفان في سبيله مصمم على الجهاد مهما كلفه الأمر من تضحيات، والشيخ ينفث فيهم الحماس، ويشدد عزائمهم، ويتدرب وإياهم على استعمال السلاح، ويعد العدة معهم لتنفيذ الخطة التي دبروها.

* * *

واختفى الشيخ وأصحابه، ولم يشعر باختفائهم إلا عدد قليل من الجمهور، فقد كان عرب فلسطين غافلين عن حركات الصهيونيين نائمين عن الخطر الذي يتهددهم، سكارى لا يفيقون ولا يدرون كيف يدرأون الخطر الصهيوني الماحق فلم يهتم أحد

باختفاء الشيخ ولم يذكر ذلك في صحيفة، وكان لذلك أثره الطيب في إحاطة أعمال الشيخ بالكتمان.

وأخذت حكومة فلسطين تشيع بين الحين والحين قتيلا إنجليزيا، اغتالته أيد خفية لا يعرف أصحابها..

وهالها توالي الحوادث..

حتى كان المستر أندراوز ـ أحد الحكام الإنجليز في فلسطين ـ سائرا مع بوليس عربي في غابات يعبد يتنزه على حصانه، فإذا بجماعة ملثمة تستوقفه ثم تقتله، وتطلق سراح العربي لأنه عربي ويخبر العربي مركز البوليس، ويبدأ البوليس نشاطه ويضع جائزة ألف جنيه لمن يرشد أو يلقي القبض على قاتلي الحاكم الإنجليزي وأخذ يتعقب هذه الجماعة التي ظهرت في غابات يعبد لعله يهتدي إلى مكانها.

وكان الشيخ قد التجأ هو وأصحابه إلى هذه الغابات يتربصون بكل إنجليزي، ليقضوا عليه، ويريحوا العالم من شره، كما كانوا يوفدون واحداً منهم أو أكثر لاغتيال كبار الشخصيات الإنجليزية في بيوتهم أو محال أعمالهم حتى روعت حكومة فلسطين، وانتشر الذعر بين اليهود الذين كانوا هدفا كذلك لنيران الشيخ.. فأرسلت قواتها لقتاله، وقد اكتشفت اعتصامه بأحراش يعبد.

وعلم الناس يومئذ باختفاء الشيخ ولكنهم لم يصدقوا بأن

الشيخ هو الذي كون عصبة الحق فليس لهذا الشيخ الوادع الساكن أن يقوم بهذا العمل، وقالوا: ماذا سيستفيد من محاربة الإنجليز الأقوياء الذين لا تغيب عن امبراطوريتهم الشمس!! بل اتهموه بالجنون إذ كيف يحارب رجل أعزل بكف أعزل قوة بريطانيا ودباباتها؛ ولكن هالهم أن يستمر هذا الشيخ الساكن في نضاله، وأن يزداد ثباتا وصمودا كلما ضيقت عليه حكومة الاستعمار الخناق وكلما منعت عنه المدد والطعام بمحاصرته في الغابات.

حتى كان يوم حالك.. ضاقت الأرض فيه على الشيخ، وعز عليه الماء والطعام فدعا رفاقه إلى الخروج لمواجهة القوات الإنجليزية وجها لوجه، فما خرج هو وصحبه إلا للجهاد والشهادة فليؤدوا واجبهم، لعل في ذلك إيقاظا لهذه الأمة النائمة، وتنبيها للغافلين..

ودعته قوات الإنجليز للتسليم فأبى ذلك وخطب إخوانه قائلا: «الله أكبر لن نستسلم.. هذا جهاد في سبيل الله والوطن»، ثم دعا رفاقه للجهاد والموت: «يا رفاقي موتوا شهداء».

وابتدأت المعركة.. وانطلقت النيران.. واستمرت المعركة ساعة أو أكثر والشيخ يحمس إخوانه، طائفا بخنادقهم التي حفروها واتخذوها استحكامات، مستهدفا لنيران البنادق السريعة والمدافع الرشاشة لا يبالي.. حتى سقط شهيدا مع أربعة رجال من أصحابه الأبرار. ورأى الباقون أن لا فائدة من القتال فانسحبوا، ولفتهم

الغـابـات في ظلمـاتهـا، وأسلمتهم في الليل الحالك إلى قراهم فاستقروا فيها..

* * *

وأصبـح الـدم القـاني الـطاهـر الذي نزف من جراح الشيخ وصحبه دما يغلي في عروق الشباب العربي وكانت كلمته الخالدة: «الله أكبر لن نستسلم هذا جهاد في سبيل الله والوطن يا رفاقي موتوا شهـداء»، ناقوس الخطر قد دق حتى أصم الآذان فأصبحت دستوراً يؤمن بهـا الشبـاب ونشيدا وطنيا يهتف بها، ولحناً عربياً خالداً يحرك المشـاعـر، ويرهف الإحسـاس الوطني، وتفتحت أعين النائمين لتـوقن بأن هذا الشيخ الـذي جاد بالنفس والجـود بها أقصى غاية الجـود، إنمـا كان دفاعا عن الوطن هو غير مبال بحراب الإنجليز وبنـادق الإنجليز ومـدافـع الإنجليز لأن الإيمـان أقوى من هؤلاء جميعا، وأيقنوا:

بأن الله أكـبـر كل شيء
محـاولـة وأكـثـرهـم جنـودا

وسـرت روح الثورة في الشباب وألهبها أولئك الشباب الذين انسحبوا من المعركة ليجددوها معارك حاميات..

وراع عرب فلسـطين ـ صبيحـة يوم ـ أن يقرأوا في جرائدهم خبرا.. ويا له من خبر!! لقد تتالى اكتشاف البوليس لكميات من

الأسلحة الفتاكة من قنابل ومدافع صغيرة في براميل الأسمنت وأكياس الدقيق التي يستوردها اليهود من أوروبا واستراليا . . كما حدث قبل حركة الشيخ القسام .

لِمَ هذه الأسلحة؟ ولمن؟ إنها لا شك للقضاء على عروبة فلسطين .

وأضرب عرب فلسطين عن العمل أياما جاوزت المائة ، وتشكلت مظاهرات الشباب السلمية تهتف بعروبة فلسطين ، وتطالب بوقف هجرة اليهود ومنح العرب استقلالهم التام ، وتطور الإضراب إلى عصيان مدني فامتنع العرب عن دفع ضرائبهم مرددين : «لا ضرائب دون تمثيل» أي تمثيلهم في الحكم ، وامتنعوا عن الالتجاء إلى المحاكم الإنجليزية لتفصل في قضاياهم بل أنشأوا محاكم وطنية ولجانا محلية تفصل في ما يقع بين العرب من الخلافات وامتنعوا كذلك عن معاملة الإنجليز .

ولم تأبه حكومة جلالة ملك الإنجليز!! إلى إضراب العرب وعصيانهم لأنها تعودت أن لا تصغي إلا إلى القوة التي تدفع باطلها فإذا هو زاهق ، وجرت على ألا تصيخ السمع إلا لصوت البارود يدوي حتى يصم الآذان . . فلجأ عرب فلسطين إلى الثورة وانطلقت شرارتها في جبل النار فلم يمض وقت قصير حتى غدت فلسطين بركانا يتفجر بالحمم ، ويلتهب بالنيران .

ووافاها القائد الجبار فوزي بك القاوقجي في ثورة الحماس وشدة الانفجار فنظم الشباب وقاد الأبطال من نصر إلى نصر، ومن معـركة إلى معركة ودربهم أحسن تدريب حتى أصبح ثوار العرب جيشاً منظماً قد جاوز العشرين ألفا . .

وكـان الـرجـل القروي صاحب الشيخ الشهيد قد انضم إلى الثورة مع فوزي بك يأتمر بأمره ويستهدي بإرشاداته، ويستفيد من تجاربه حتى حنكته التجارب واستفاد دربة حربية كان لها في تاريخ فلسطين شأن . .

واستمـــرت الثـورة أشهـراً حتى كان الشهـر السـادس فأيقن الإنجليز أن لا بد لعرب فلسطين من أن ينالوا حقهم لأنهم تأكدوا أنهم سيستمـرون في القتـال حتى ينـالـوا ما يريدون أو أن يقضوا شهداء دون ذلك، فلجأت إلى الحيلة، وجاءت إلى ملوك العرب ورؤسـائهم بدمـوع التمـاسيح، وطلبت إليهم أن يتدخلوا لإيقاف الثـورة وعليهم أن يرسلوا لجنـة تحقيق لتعـطي العـرب حقوقهم. وانخـدع ملوك العرب وأمراؤهم ورؤساؤهم وصدقوا وعود الإنجليز الكاذبة؛ وتدخلوا في الأمر، وتوقفت الثورة، ورجع فوزي بك إلى العراق.

وصدر قرار لجنة التحقيق القاضي بتقسيم فلسطين وتجزئتها واستأنف العرب الثورة من جديد، وقام تلامذة فوزي بك بقيادة الشباب.

وكان صاحبنا القروي أبو درة واحداً من هؤلاء القواد. قاد بروح الشيخ ونـظم المعارك بدربة القاوقجي، وكانت الثورة غير موحدة القيادة بل كان كل قائـد يقوم بالمعارك دون استشارة الآخرين في المنطقة التي اتخذها مقرا لقيادته، وكانت منطقة القائد أبو درة في قضـاء جنين حيث كان يقـوم بمعـاركـه فيهاجم الثكنات الحربية الإنجليزية ويكمن على سفوح الجبال للقوافل اليهودية والإنجليزية فيصليها نيرانه الحامية، ويستهدف لنيران مدافعها ثم ينسحب بعد ذلك إلى الجبال.

وكان من عادة المجاهدين الثوار أن يعملوا نهاراً في الحقول ويقـومـوا ليلاً بأعبـاء القتال، إلا أن القائد ونفراً من أصحابه كانوا دائما على استعداد للقتال وكانوا يتنقلون من قرية إلى قرية حتى إذا اصطدموا نهاراً أو ليلاً بالقوات الإنجليزية جاءت إليهم النجدات من جميع الأنحاء.

* * *

ونـام القـائـد أبـو درة مرة في قرية اليامون. ونمى الخبر إلى القـوات الإنجليزية بأنـه هناك فأسرعت بقواتها الحاشدة تحاصره لتقبض عليه.. وانتبـه أبـو درة في الصبـاح وتنـاول منظاره ليتفقد ـ على عادته ـ أنحاء القرية ومشارفها فرأى حركة الجنود الإنجليزية وهي تزحف نحـو القـرية فأسرع إلى رجاله ودعاهم فلبوا النداء، وهبـطوا إلـى منبـسط الأرض بين يدي القـرية حيث اتخـذوا

استحكـامـاتهم لمـواجهة الأعداء. وأرسل أبو درة الرسول يستنفر القـرى المجاورة لمساعدته، وأقبلت القوات الإنجليزية فضربت نطاقا حول القرية وسهولها ثم أخذت تتقدم رويدا رويدا، متوجسة في تقدمها متباطئة في حركتها، تستوثق من كل شبر من الأرض قبل أن تتقدم خطوة واحدة، حتى إذا قاربت مكان المجاهدين أمر أبو درة بإطلاق النيران فحصرت مقدمة الإنجليز وخروا صرعى، واتخذ الإنجليز من دباباتهم ومن الأرض استحكامات وابتدأت المعركة. وبينمـا كان الصف الأول من الإنجليز يبـادل المجـاهدين النيران كانت الصفـــوف الأخـرى تضيق النـطاق الـذي ضربتـه لتحصـر المجاهدين وتمنع عنهم الإمداد.

وجاءت النجدات للمجاهدين، ولكن كيف تصل إلى القائد المحصـورا!؟ فضربت نطاقا على نطاق الإنجليز، وحصرتهم بين نارين من الــداخــل والخــارج.. ورأى الإنجليز ذلـك فأرسلوا الإشارات اللاسلكية يطلبون المدد والنجدة.. وسرعان ما جاءت الـطائـرات البريطانية تتفقد حالة قواتها، وعادت لتأتي بآلاف من جنود الإنجليز وقوة حدود شرق الأردن لتقوم بمساعدة الإنجليز المحصورين.

ومـرت ساعـات والمعـركة حامية الوطيس، وجاءت نجدات بريطانية كبيرة تحمل المدافع الثقيلة، وتؤيدها الطائرات الحربية، وأقامت نطاقا ثالثاً حول المجاهدين.

وكانت القوات الإنجليزية تبلغ ثلاثين ألفاً حشدت كلها بقيادة الجنرال وايفل للقبض على القائد أبي درة وصحبه المجاهدين وكان المجاهدون بضعة آلاف قد استوثقوا من إيمانهم واعتمادهم على الله.

واتخذت المعركة شكلاً آخر، وتبدل الحال وانقلب الحصار على المجاهدين بعد أن حاصروا الإنجليز.. فاستبسلوا واستماتوا في القتال والدفاع، وبلغ الجهد بالقائد المحصور أشده، وأيقن أنه إن بقي محصورا ولم يتصل بإخوانه الثوار فهو لا بد هالك..

وعمل الإنجليز المحصورون بين المجاهدين على الاتصال بزملائهم الذين أحاطوا بالثوار فتركوا قتال أبو درة والتفتوا إلى قتال الثوار الذين أحاطوا بهم.. وانتهزها أبو درة فرصة وهجم مع زملائه عليهم حتى استطاع أن يتصل بإخوانه المجاهدين فأجهز معهم على الإنجليز المحصورين الذين لم ينج منهم إلا عدد قليل استطاع أن يخترق حصار الثوار، ويتصل بنطاق الحصار الإنجليزي الأخير..

وتحطم نطاق الحصر الأول بهذا الهجوم المفاجيء..

ووجد الثوار أنفسهم محاصرين بقوات هائلة من الأعداء، ورأى القائد العربي أن القتال بتبادل النيران لا يجدي فإن معهم المدافع، ولديهم الطائرات ولن يقوى على مغالبتهم إلا إذا التحم

معهم بالسلاح الأبيض، وأعطى أمره بالزحف صوب الأعداء تحت وابل النيران.

وزحف العدد الأكبر من المجاهدين بينما كان إخوانهم من ورائهم يطلقون النيران ليموهوا على الأعداء بأنهم لا يزالوا ثابتين في أمكنتهم، حتى إذا قاربوا استحكامات الأعداء، ومتاريسهم قفزوا عليهم، وأعملوا فيهم الخناجر والسيوف وأطلقوا عليهم رصاص المسدسات.

وكان هدف أبي درة الأول أن يصل إلى القائد العام الجنرال وايفل[1]، وأخذ يتنقل من مكان إلى مكان، ومن دبابة إلى أخرى، حتى عرف مقر القائد في مؤخرة الصفوف فأسرع إليه ولمحه الجنرال وايفل مقبلا عليه فأطلق عليه رصاص مسدسه فلم يصبه ولم يبال أبو در بالرصاص بل تقدم غير هياب وقفز إلى الدبابة حيث طعن القائد في كتفه، وحاول الجنرال أن يتفادى الطعنة فما استطاع، بل قفز إلى الأرض وأسرع إلى دبابة أخرى حيث أنقذه الجنود. . وتركه أبو درة وعاد إلى إخوانه المجاهدين.

ورأى الجنرال وايفل أن الشمس قد أشرفت على المغيب فأمر بالانسحاب، وانسحب الجنود في الوقت الذي أفسحت فيه قوات

---

(١) وقد أصبح فيما بعد لوردا وحاكما عاما للهند.

حدود شرق الأردن العربية لإخوانهم العرب طريقا خرجوا فيه من الحصار. .

وانتهت المعركة بانتصار المجاهدين.

وعاد الجنرال وايفل يئن من جراحه. وأصدرت حكومة جلالته أمراً بنقل الجنرال إلى مصر وتعيين خلف له. . كما أذاعت بلاغا قالت فيه: «هاجمت قوات حكومة صاحب الجلالة نفراً من العصابات فقتلت منهم عشرين، واستولت على كميات كبيرة من الأسلحة، ولم يصب أحد من قوات حكومة جلالته بضرر». بينما كانت العقبان والطيور تتمتع بلحوم القتلى من الإنجليز في سهول «اليامون» وفي وقت كان العرب يقتسمون فيه الغنائم من البنادق والمدافع حتى ملابس الإنجليز. . ويلهو أبناؤهم بحطام الطائرات والدبابات التي حطمها آباؤهم في معركة اليامون. .

ويسمع الجنرال وايفل هذا البلاغ من المذياع والدماء تنزف من جراحه في مستشفى مصري ويضحك في قرارة نفسه ساخرا من عقلية الإنجليز.

توبـــة

. . وقحط النـاس في عهـد الخليفـة الناصر قحطاً شديداً، فأجـدبت الأرض، وانقـطع المطر، وجف الضرع، ويبس الزرع وهلكت المـاشية، وأصـاب الناس غم شديد، وأصبحوا في هلع وبأس، حيارى لا يدرون ما يفعلون. .

وكان الناصر قد أهمه الأمر، وشغله جوع الناس، وخشي على المسلمين أن يستبـد بهم الجـوع فيضعفـوا، والعـدو بالمرصاد، والإفـرنـج على استعـداد، فأرسل الرسل يستنجد بالمسلمين أن يرسلوا إليه الطعام والميرة. . وإلا هلك إخوانهم جوعا، وأصبحوا عرضة لغارات الأعداء.

وتـأخـرت إمـدادات الـطعـام، وأصبح الناس يتساقطون من الجـوع، عشرات تلو عشرات، وأمست الماشية يغدو بها الراعي هزيلة ضعيفة فلا يعود إلا بنصفها أو أقل. . وغدت الهجرة عامة في جميع الأنـدلس، فكنت ترى المسلمين يتقـاطرون إلى المغرب فراراً من المـوت جوعـا، وأكل الباقون لحوم الحيوانات واستمرأوا لحم القـطط والكـلاب، وزاد المؤرخون فزعموا أن الناس أصبح يأكل بعضهم بعضا.

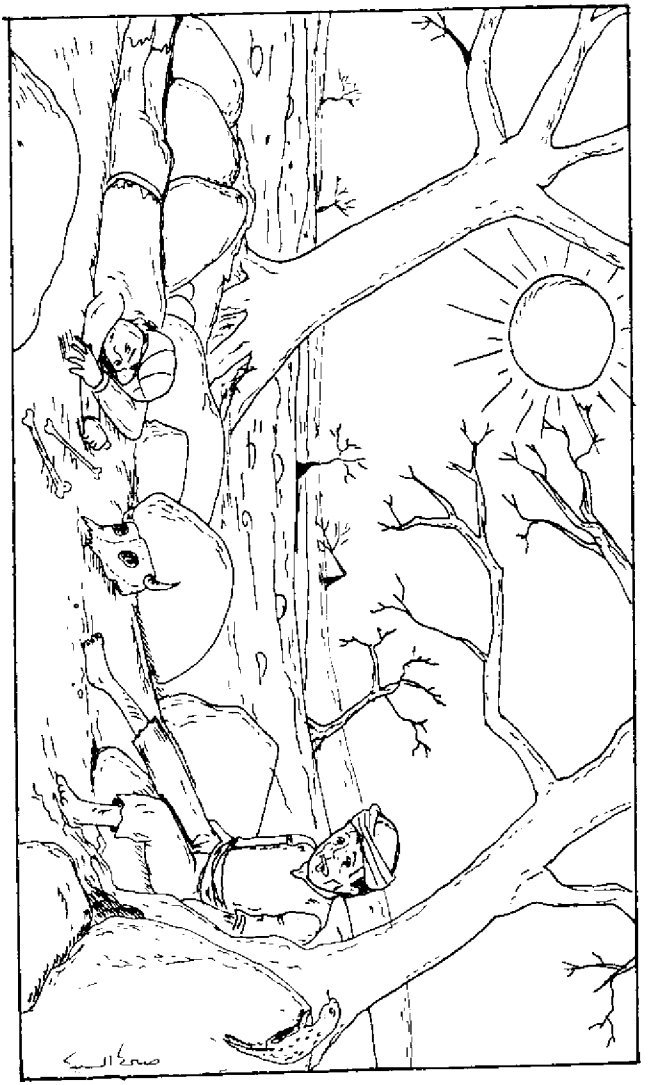

وجزع الأمراء والعلماء، وجأروا إلى الله بالدعاء، وعزم الناصر على صلاة الاستسقاء واشتد عزمه عليه فأرسل رسولا إلى التقي الورع منذر بن سعيد.

وأقبل الرسول مسرعا إلى مسجد الزهراء فإذا به يرى منذر بن سعيد وقد استند إلى جدار المسجد، والناس حوله حلقا، خاشعين خاضعين، وهو يعظهم ويتلو عليهم آيات ربه.. وأخذت الرسول رهبة المجلس، وروحانية العلم، فجلس مع الناس ينتظر فروغ ابن سعيد.

واستمع إليه يقول: «من حديث ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما نقص قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم. ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء»». «يا قوم، هذا رسول الله ﷺ ينبئكم بأسباب القحط والجوع. ضعف في الإيمان، وقلة في التقوى، أتاحت للشيطان الفرصة، فنفذ إلى نفوسكم، ووجد إليها مدخلا، فأوردها موارد التلف، وزين لها العصيان، فنقصتم المكيال والميزان، وخنتم الناس والرحمن، ومنعتم الفقير حقه، والمسكين نصيبه، فلم تؤدوا الزكاة إلى أربابها؛ فمنع الله عنكم القطر من السماء، وأخذكم بالسنين، ونقص في الأموال والثمرات؛ وعزت عليكم المؤونة، واشتد بكم جور السلطان، ذلك بما كسبت أيديكم، وجنته نفوسكم، يقول تبارك وتعالى في هذا المعنى: ﴿**ولو**

أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء. .﴾ الآية الكريمة».

وسأل رجل مهيب الطلعة أشيب اللحية فقال: «يا سيدنا. . أرأيت إلى عهد النبي ﷺ ألم يحدث فيه قحط والناس كانوا خيرا منهم اليوم؟».

فأجاب القاضي: «القحط في كل زمان ومكان لا بد أن يصيب الناس. . بلاء ينزله الله على الناس ليزجرهم عن الغي كلما انصرفوا عن التقوى، ويقرعهم بالمصائب كلما تمادوا في الطغيان ويذكرهم بعذاب الله كلما تركوا ذكر الله. . شكا الناس إلى النبي ﷺ قحوط المطر فأمر بمنبر فوضع له المصلى ووعد الناس يوماً يخرجون فيه، فخرج حين بدا حاجب الشمس فقعد على المنبر فكبّر وحمد الله ثم قال: «إنكم شكوتم جدب دياركم فقد أمركم الله أن تدعوه ووعدكم أن يستجيب لكم ثم قال: «الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين لا إله إلا الله يفعل ما يريد. اللهم لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلت قوة وبلاغا إلى حين»، ثم رفع يديه فلم يزل يدعو حتى رؤي بياض إبطيه ثم حول إلى الناس إلى ظهره، وقلب رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس ونزل فصلى ركعتين فأنشأ الله سحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت.

وقد دخل المسجد رجل يوم الجمعة والرسول قائم يخطب

فقال: «يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله عز وجل يغيثنا»، فرفع النبي صلوات الله عليه ورفع الناس أيديهم ثم قال: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا»، قال راوي الحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «فلا والله ما نرى في السماء سحاب ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع[1] من بيت ولا دار، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت»، قال: «فلا والله ما رأينا الشمس سبتا..»، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائما فقال: «يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله يمسكها عنا»، قال: «فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والظراب، وبطون الأودية ومنابت الشجر، فانقلعت وخرجنا نمشي في الشمس».

هذا يا أخي والناس في عهد رسول الله صلوات الله عليه، وهو بين ظهرانيهم يدعو فيستجاب له، وهو النبي المرسل مجاب الدعوة، مقبول القول، أما اليوم فلا شفاعة لنا إلا أعمالنا وتقوانا وصالح أفعالنا.. إن الله لا ينزل القطر حتى نعود إليه تائبين خاشعين».

وانتهز رسول الناصر الفرصة فقال: «يا سيدنا، إن أمير المؤمنين قد أرسلني إليك، وقد عزم على صلاة الاستسقاء وهو

---

(١) اسم مكان بالمدينة.

يدعوك والناس للخروج إلى المصلى».

فقال منذر: «يا أخي، لا بد من التأهب للقاء الله، قل لأمير المؤمنين إن موعدنا بعد ثلاث ليال، وأذكر له حديث رسول الله ﷺ إذ خرج إلى صلاة الاستسقاء متبذلا متخشعا مترسلا متضرعا، ثم مره فليصم، وعد إليَّ بعد ذلك».

وذهب الرسول وتأهب الناس لصلاة الاستسقاء، وصام منذر بن سعيد ثلاثة أيام تنفلا ورهبة وإنابة.. فلما كان يوم الاستسقاء جاء رسول أمير المؤمنين إلى القاضي وقال له: «هل تأهبت للاستسقاء؟».

فقال القاضي: «ليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا؟».

فقال الرسول: «ما رأيناه قط أخشع منه في يومنا هذا، إنه منتبذ[1] حائر، منفرد بنفسه، لابس أحسن الثياب، مفترش التراب، وقد رمى به على رأسه ولحيته، وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول: «هذه ناصيتي بيدك، أتراك تعذب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين؟ لن يفوتك شيء مني».

وتهلل وجه القاضي، وأشرقت قسماته وقال لغلامه: «يا غلام

---

(١) معتزل للناس.

احمل الممطر[1] معك لقد أذن الله بالسقيا. . إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السموات».

وأقبل الناس على المصلى في خشوع، قد عفروا الوجوه، وأظهروا الإنابة، واخبتوا لربهم، وساقوا أمامهم الدواب والماشية، وقلبوا الثياب إظهارا للذلة والمسكنة واجتمعوا يجأرون بالدعاء، ويتضرعون في بكاء. وصعد الخليفة الناصر في أعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشارف الناس ويشاركهم في الخروج إلى الله تعالى؛ والضراعة له.

واجتمع الناس في مصلى قرطبة بارزين إلى الله في جمع عظيم وانتظروا القاضي ليبدأ الصلاة. . وأبطأ القاضي حتى غصت بالناس ساحة المصلى، وعلا الضجيج والبكاء، وارتفعت أصوات الأطفال الباكية والشيوخ الناحبة والبهائم السارحة.

ثم أقبل القاضي ماشياً متضرعاً، مخبتاً متخشعاً، تحف به هالة من نور الإيمان، وتعلو وجهه سحابة الألم المكتوم، وسار حتى أقبل على منبر قد نصب له فارتقاه. . وخشعت الأصوات وسكن الضجيج، وأطرق الناس، فلا تسمع إلا همسات خافتة، وزفرات بكاء ضعيفة. .

ووقف القاضي ليخطب، فكتم الناس الأنفاس، واشرأبت

---

(١) ثوب من صوف يلبس في المطر ليتقى به.

إليه الأعناق، وتطلعت إلى محياه الأبصار. . ونظر فإذا الجموع المتراصة قد ظللتهم سحابة الذل لله، وغشيتهم غاشية الخشوع للرحمن، فرقت نفسه، وغلبته عيناه فاستعبر، وانهملت دموعه، وبكى حينا. . وبكى الناس لبكائه، ثم هتف بالناس كالمنادي: «أيها الناس. . أيها الناس. . أيها الناس» وهو يشير إليهم. . ثم قال: «أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد. إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز»، فاشتد بالناس الوجد، وانطلقت أعينهم بالبكاء. . ومضى في خطبته: «يا أيها الناس سلام عليكم»، ثم سكت وظن الناس أن القاضي قد أصابه شبه الحصر لطول سكوته. . ولم يكن من عادته أن يتوقف. . ولكنه اندفع بعد قليل تالياً قوله تعالى: «**﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعد ذلك وأصلح فإن الله غفور رحيم﴾**، استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، وتزلفوا بالأعمال الصالحة لديه».

وسكت القاضي قليلا. . وضج الناس بالبكاء والدعاء. . ثم أتى على تمام خطبته فقرع النفوس بوعظه، وشدد عليهم بزجره: «يا قوم: آية من آيات الله دلت على أنكم طغيتم وبغيتم، وقمتم بغير ما أمر الله، فسوق وعصيان، وتعلق بزخرف الدنيا،

واستمســاك بأهــداب الشيطان، نسيتم الله فأنســاكم أنفسكم، وأعـرضتم عن ذكـره فأعرض عنكم. ولئن عمكم بالرحمات اليوم فلأجل غيركم.. لأجل البهائم الرتع، والأطفال الرضع، الشيوخ الـركع.. خرج سليمان عليه السلام يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: «اللهم إنا خلق من خلقك، ليس بنا غنى عن سقياك»، فقال سليمان: «ارجعوا فقد سقيتم بدعــوة غيركم» والله إن المصيبـة ـ كمـا نسميهـا ـ ليست بمصيبة كما يراها الله، إنها عقاب على ما أثمت أيدينا، واكتسبت نفوسنا، بل هي بعض العقاب يذكر الله به الذين غفلوا عن ذكره، ولن يؤاخـذ الله النـاس بظلمهم على ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخـرهم إلى أجـل مسمى، ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾».

واستمر القاضي في الخطبة سحابة النهار والناس خاشعين قد شغلتهم ذلـة العبودية عن حر الشمس، وصرفتهم حرارة الخشوع عن لذات الـدنيا.. فمضى الـزمن وهم لا يدرون وتدفق الكلام على لسان القاضي وهو لا يشعر.. لقد كان لله فجرت حكمته على لسانه: «اللهم رحمتك، اللهم أنت القائل: ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها**﴾، ونحن في ذل العبودية ندعوك رحمتك اللهم رحمتك».

«اللهم جللنا سحاباً كثيفاً قصيفاً[1] دلوقاً[2] ضحوكاً تظهرنا منه رذاذاً[3] قطقطقاً[4] سجلا[5] يا ذا الجلال والإكرام[6] اللهم إننا تجردنا من دنيانا لآخرتك، وبعنا لذّاتنا لأجل لذة عبادتك، وطرحنا عنّا أثقال الذنوب بين يديك وأنت الغفور الرحيم اللهم إنّا قد اشتد بنا القحط، وعمنا الكرب، ودارنا على باب الإفرنج منها يدخلون إلى أرض الإسلام فلا تفرط بنا وتضعفنا يا أرحم الراحمين».

وضج الناس بالدعاء، وتعالت الأصوات حتى صاح الصائح يدعو لصلاة ركعتي الاستسقاء، واصطف الناس، وأمهم القاضي منذر بن سعيد وتلا في الصلاة: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**..﴾ الآيات، فما أشرف على الانتهاء حتى أرسل الله السماء بالمطر المنهمر فروى الثرى.. وبلل الثياب.

قال التاريخ: ورجع الناس لا يدرون كيف يصلون إلى البيوت من شدة المطر وغزارة المياه وكثافة السحب، وإظلام الدنيا..؟

والحمد لله أولاً وآخراً

---

(١) ما كان كثير الرعد.
(٢) متتابع الدفعات.
(٣) المطر الخفيف.
(٤) مطر بسيط.
(٥) المطر المنصب.
(٦) هذه الفقرة من حديث النبي ﷺ.

نتاج المؤلف المطبوع

١ ـ ظلال المجد.

٢ ـ الشركات في الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، جزءان.

٣ ـ المجتمع المتكافل في الإسلام.

٤ ـ نظرية العرف.

٥ ـ نظرية العقوبات.

٦ ـ القضاء والقدر.

٧ ـ الإسلام صالح لكل زمان ومكان.

٨ ـ حكم الأطعمة والذبائح في الإسلام.

٩ ـ حكم العقم في الإسلام.

١٠ ـ التنمية والرفاه من منظور إسلامي.

١١ ـ مناهج الفقهاء.

١٢ ـ شروط الاجتهاد.

١٣ ـ الناس شركاء في الأموال العامة.

١٤ ـ رأي إسلامي في مفهوم الاختلاط وحكمه.

١٥ ـ الواردات المالية في عهد الرسول وكيفية إنفاقها.

١٦ ـ الزكاة والضمان الاجتماعي.

١٧ ـ نظرة الإسلام للعمل وأثره في التنمية.

١٨ ـ النظام السياسي في الإسلام.
١٩ ـ أفياء المجد.
٢٠ ـ طرق الاستدلال بالسنة.
٢١ ـ حقوق الإنسان والتمييز العنصري في نظر الإسلام.
٢٢ ـ الأسهم والسندات من منظور إسلامي.
٢٣ ـ الشركات في ضوء الإسلام.
٢٤ ـ المدخل إلى الفقه الإسلامي.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٧
مقدمة بقلم فضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين	٩
تمهيد	١٣
من وحي الهجرة	٢١
كيف كفر عن ذنبه؟	٢٧
في سبيل الاستقلال	٤١
صرخة ونجدة	٥١
أتبنون بكل ريع آية؟	٥٧
نصر الشهيد	٧٥
جمال.. وقبح	٨٣
مبايعة على الجهاد	٩٥
جراح الجنرال وايفل	١٠٣
توبة	١١٥
نتاج المؤلف المطبوع	١٢٥
الفهرس	١٢٧